وداعًا أيها الغريب

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 3458 / 2020

الترقيم الدولي: 4 – 457 – 838 – 977 – 978

الكتاب: وداعًا أيها الغريب

المؤلف: يوسف سالم

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

وداعًا أيها الغريب

رواية

يوسف سالم

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

باقي 16 ساعة

أول كذبة كذبتها في حياتي كانت «شبعان». قلتها عند زوجة خالي وأنا أتضور جوعًا وأمي تزغر لي رافضةً خوفًا من أن تكون زوجة خالي «عاملالنا عمل».

ثاني كذبة كانت على «مس لبنى» مدرسة العربي التي سألتني إن كنت أخذت حقنة التطعيم فهززت رأسي موافقًا بينما كنت قد ركضت خارجًا من الفصل حين أعلنوا عن التطعيم.

الكذبة الثالثة لا أعلم إن كانت كذبة أم لا. كانت على زميل أبي الذي اتصل بالتليفون الأرضي فرددت عليه وسألني عن أبي فقال لي أبي: «قول له نايم» فتوترت فاستلقى على الكنبة نائمًا وقال لي: «إنت كدة مكدبتش». من وقتها وأنا أجيد الكذب بوجه شديد الصدق والبراءة.

أقف أمام المرآة أعدّل ملابسي. جسد نحيل فوقه قميص أزرق وبلوفر رمادي خفيف ورجليّ دجاجة يغطيهما جينز أزرق. أحدق لنفسي بعينيّ الكبيرتين الذاهلتين وأراقب أنفي الكبير سبب ضعف ثقتي بنفسي.

على السرير حقيبتي الكاميرا واللابتوب. على الأرض حقيبة السفر الضخمة المفتوحة تحسبًا لأي شيء أنساه في اللحظات الأخيرة. سمعت صوت خطوات أمي قبل أن أراها في المرآة.

– الشياكة دي كلها عشان تسلِّم على صحابك؟ دا إنت مبتنزلش غير بالبيجاما.

سأحتاج إلى كذبة جيدة. قلت لها بوجه صادق:

– عايز صحابي يفتكروني وأنا شكلي حلو.

قالت في تأثّر:

– لما أبوك راح مأمورية 6 شهور عملتله شال وكوفية صوف. يا ريت فيّا نظر وصحة كنت عملتلك.

– هناك كل الأماكن مكيّفة. اشتريت بالطو ألبسه في الشارع وأقلعه وأنا في مكان مقفول.

رأيت أمي تقاوم البكاء بعد كذبتي هذه فأحسست بالذنب. أكملت:

– أقلّ من سنة. عشر شهور. هكلمك كل يوم. زي ما ياسمينة بتقرفنا مكالمات.

– إنت مش زي ياسمين. إنت برّاوي. طيارتك الفجر ومستخسر في أمك الكام ساعة دول.

– هتغدى معاهم وأجيلك نسهر لحد م أسافر.

أكذب دائمًا بدافع الخوف. هذه المرة أكذب بدافع الجهل. لا أريد أن أقول لأمي أنني سأتناول الغداء مع رضوى لأنها ستسألني من هي رضوي وما علاقتي بها وأنا حقًا لا أعرف. ولا أعرف لماذا طلبت رضوى مقابلتي قبل سفري إلى كندا بعدة ساعات. كان بإمكاني الرفض والتحجج بتجهيز حقائبي وتوديع أهلي. لكنني أردت الابتعاد عن أهلي وأصدقائي لتقليص لحظات الوداع قدر الإمكان. ولأنني أيضًا أريد رؤيتها ولا أفهم لماذا.

سمعنا أصوات دق مزعجة قادمة من الصالة. خرجت أنا وأمي إلى الصالة لنرى ما يفعله أبي هذه المرة. لفحنا هواء قوي قادم من الشباك المفتوح على مصراعيه. يقف أبي وحوله أدوات نجارة. شاكوش. منشار. مفكّات. ويحاول فعل شيء لا أفهمه. هكذا هو أبي منذ خرج على المعاش. كل يوم يخرج العِدة ويصلح شيئًا في المنزل. السخّان. التليفون. جهاز كاسيت قديم لا أعلم من أين سنجد له شرائط هذه الأيام. هذه المرة يقرر توسيع النشاط ويتحول إلى نجّار مسلّح. تقول أمي مازحةً:

– ورشة عماد النجار مقفولة تحت. نأجّرهالك؟

للأسف لا يمكنني قول هذا النوع من الدعابات لأبي. كل ما تكلمت أمام أبي أرى على وجهه نظرات الازدراء الممزوج بعدم

الفهم. قد أقول جملة تثير ازدراء أبي بعدها يقول آدم أخي نفس الجملة فيضحك أبي حتى يسقط من على كرسيه. نزع الله مني القبول لدى العائلة وأعطاه إلى آدم.

– الشبّاك مش بايت كويس في مكانه. بيجيب سرسوب هوا بالليل بيخلليني أتكتك م البرد وانا بتفرج ع التليفزيون.

قالها أبي منهمكًا. هكذا يودعني قبل سفري بعدة ساعات. يصلّح الشباك من أجل سرسوب الهواء!

علاقتي بأبي لا تتخطى بضع هزّات رأس في اليوم حين أصحو وحين نلتقي على الغداء وقبل النوم. نتبادل بضع كلمات مثل «يا ابني اطلع اقعد معانا شوية». أو «كلّم ابن عمتك باركله عشان جاب بنت». أو «الأهلي هيلعب إمتى». السؤال الذي لا أعرف إجابته أبدًا لأنني لا أتابع كرة القدم. فيقول «هسأل آدم. هو أكيد عارف» مما جعلني أحمّل تطبيق كروي يخبرني بمواعيد مباريات الأهلي فأقولها له حين يسألني فيقل حوارنا جملة أخرى.

ألقيت نظرة أخيرة على مظهري في المرآة. عدّلت ملابسي وشعري. قالت لي أمي أن آدم نائم ووعدتني أن توقظه على الموعد ليأخذني إلى المطار. نزلت من البيت وأنا افكر في آخر كذبة كذبتها والتي كانت منذ لحظات حين قلت لأمي أنني بعد عشرة أشهر سأعود. بينما قد قررت الهجرة للأبد.

قبل أن تقرأي يا أمي أريد أن تعديني بأمرين. الأول هو ألا تبكي. وإن بكيتي ألا تبكي كثيرًا. الثاني ألا تتصلي تناقشيني لأنني قررت وانتهى الأمر.

سأبدأ حياة جديدة في النصف الآخر من العالم. سأعمل بالمهنة التي أحب دون حفلات عُرس ودون إعلانات ودون مراد غالي. أعلم أنك سعيدة من أجلي رغم دموعك. ستكون كندا أشبه بغرفتي. واسعة ومنظمة وباردة. وُلدَ ابنك غريبًا وسيظل غريبًا.

لن أقولها في وجهك. ولن أذيقك ويل الانتظار وأفاجئك بعد سنة أنني لن أعود. لذا أقولها لك وأنا على الطائرة. ضاقت عليّ البلد يا أمي فلم يسعني إلا حضنك. فلا تجعليه سجنًا لي.

لم أكذب حين قلت إن المنحة مدتها سنة لا أعلم ما سيحدث بعدها لكن ما أعرفه أنني لن أعود. قد أسهر الليل في الحانات وأنام متجمدًا على الأرصفة. سأتصل بك باكيًا فلا تهوّني عليّ ولا تطلبي مني أن أعود. ف أنا لن أعود. هذا لم يكن مكاني يومًا لأعود إليه.

مسودة لرسالة وداع كتبتها لأمي

تم مسحها لاحقًا بسبب شدة القسوة والركاكة

باقي 15 ساعة و 45 دقيقة

موعدي مع رضوى في تمام الثالثة أمام مطعم إيطالي في وسط المدينة. أقف داخل الأتوبيس المتجه إلى وسط المدينة مستندًا إلى الشباك بزاوية معينة حتى لا أسقط أرضًا.

قال لي موسى صديقي المقيم في كندا أنني سأفتقد الضوضاء والزحام وسأجن من الهدوء هناك فقررت أن أتشبع منهم. كذلك نصحني أن أشبع من الطعمية والفول والكشري لأن الموجود منهم في كندا لا يشبه ما نعرفه.

حاولت الإكثار منها لكن قولوني المسكين لم يتحمل. الشباك المكسور يدخل هواءً منعشًا ينسيني رائحة عرق الرجل الجالس أمامي. كيف يحتفظ ركاب الأتوبيسات برائحة عرقهم في كل فصول السنة؟

لأول مرة منذ أعوام أستقل الأتوبيس دون سمّاعات في أذني. أستمع في طرب إلى صوت «زنّة» المحرك مختلطة بصوت الهواء. كاسيت الأتوبيس يشغّل أغنية يقول مطربها «الوجع» ثم يغطي الهواء على الصوت. تتكرر كلمة «الوجع» باستمرار بصوت المطرب الشجي. سأبحث عن اسم هذا المطرب فيما بعد.

تصعد امرأة حاملة الكثير من الأكياس الثقيلة وتجر في يدها ولدًا في السادسة من عمره. لا تجد المرأة المرهقة من يترك لها مقعده فتجلس على سلّمة مرتفعة داخل الأتوبيس وتُجلس ابنها على أحد الحقائب.

يحاول الولد الجري داخل الأتوبيس فتمسك به أمه فيحاول الجري من جديد فتصفعه على وجهه. لم يلفت المنظر انتباه أحد سواي. الكل مشغول بالنوم أو اللعب على موبايله أو الشرود في ملكوت الله. يميل الولد بوجهه على أحد الحقائب ويحاول النوم.

يقوم فجأة ويقفز ضاربًا أحد الرجال الواقفين في ركبته فيتألم الرجل فتعتذر له الأم بشدة وتضرب الولد بقوة أكبر وتمسك به لتجلسه فأرى على وجهها الحزن والملل. كلما حاول الولد القيام من مكانه تضربه أمه بمعدل ثابت. كل دقيقتين. وهو معدل يبقي الفتى هادئًا وفي نفس الوقت لا تثير الانتباه. يبدأ الولد في التصفيق وغناء أغنية سوقية فتصفعه أمه ليصمت.

يكتشف معظم ساكني القاهرة وسط المدينة بطريقتين. إما أن يأخذهم أهلهم لشراء ملابس العيد أو عن طريق الأصدقاء الشغوفين- المتظاهرين بالفن.

أما أنا فأدين بالفضل في معرفة وسط المدينة لجمال عبد المجيد غول الكيمياء. أجبرتني أمي على الذهاب إليه في ثانوية عامة

والجلوس في قاعة ضخمة سيئة التهوية مع 120 بائس مثلي لسماع الغول يشرح لنا الجدول الدوري وكيفية تسمية المركبات العضوية.

يقف الغول قصيرًا مشعرًا يفوح منه المسك الرخيص ويصدر خوارًا بين المعلومة والأخرى. كلما تعرّق أكثر وارتفع صوت خواره الوحشي كلما زادت أهمية المعادلة التي يشرحها. يمر زبانيّته يمنعوننا من الكلام أو السؤال أو التفكير أو التنفس. قبل الثانوية كنت أحب الكيمياء لكنها عند الغول ارتبطت عندي برائحة عرق 120 مراهقًا ومشوار طويل مرهق من جسر السويس حيث أسكن إلى عبد الخالق ثروت في وسط المدينة. كرهت الكيمياء وأحببت وسط المدينة.

يهرب الطلبة من دروس الثانوية ليقابلوا حبيباتهم أو ليلعبوا الكرة أو ليدخنوا الحشيش على أسوأ الأحوال، بينما كنت أهرب لأمشي في شوارع وسط المدينة دون هدف. أتبع عاشقين ممسكين بيد بعضهما، أو ولد صغير يهرول خلف أمه أو شحّاذًا يتظاهر أنه أعرج. أرى الشحّاذ يغيّر الرجل التي يعرج عليها كي لا تؤلمه من كثرة التظاهر.

كنت مغرمًا بمعرفة ما وراء القصص. من أين يأتي الناس وإلى أين يذهبون. مشكلتي أنني أفقد تركيزي سريعًا فلا أتبّع شخصًا حتى

نهاية طريقه. أمشي حتى أتوه فأجلس على أقرب مقهى أشرب كوبًا من الشاي وأسأل من أين أركب إلى مصر الجديدة وأرحل. ربما أبي لديه الحق. كنت غير مفهومًا ومثيرًا للازدراء.

عرفت «نادر» في الأتوبيس. كنت أراه ويراني كل يوم. عرفنا بعضنا البعض من ملزمة الغول للكيمياء. ملزمة زرقاء مخيفة مرسوم عليها نواة تدور حولها إلكترونات. كان يتشاجر مع حبيبته في الموبايل طول الطريق. كان لديه موبايل بكاميرا وهو أمر جلل في عام 2009. على الأقل بالنسبة لنا في تلك السن. فهمت أن أهله أثرياء. أحييه كلما رأيته بهزة رأس فيفعل المثل. حتى ذلك اليوم الذي أغلق فيه الخط في وجه حبيبته وأتى ووقف بجواري وسألني إنت كنت حللت الواجب فهززت رأسي بالإيجاب فأخذ ملزمتي وملزمته وطلب مني أن أعطيه ظهري ففعلت فوضع الملزمتين على ظهري واستخدمني كمكتب ونقل مني الواجب.

منذ تلك اللحظة اعتبرني صديقه. صرنا نقف معًا في الأتوبيس كل يوم أربعاء الساعة العاشرة صباحًا ونعود معًا في الثانية ظهرًا. أول ثلاثة أشهر من صداقتنا لا أذكر أنني تكلمت أكثر من عشر جمل. أخذته في جولاتي العبثية ومشينا في الشوارع وهو يشتكي لي من سارة حبيبته وطريقتها الجافة معه وعدم رومانسيتها. وأنا أستمع

معتبرًا شكواه موسيقى تصويرية مسلية لرحلاتي في الشوارع منتظرًا فرصة أن آخذ هاتفه وأرى الكاميرا.

استوقفتني عمارة قديمة في شارع طلعت حرب فطلبت من نادر أن يعطيني موبايله فالتقطت له عدة صور انبهر حين رآها وقال لي «أخيرًا طلع ليك في حاجة» وكلما رأى صديق أظهر له الصورة وأنا أقف في خجل وعدم فهم. بعدها اعتمدني مصورًا خاصًا له وصوّرته مع حبيبته سارة. ومع خطيبته بسمة. ومع زوجته داليا.

الآن أقف في الأتوبيس يخنقني الزحام ويمنع عني برد الشتاء. أخرج موبايلي وأقلّب في أول صور صوّرتها لنادر. يقف مستندًا إلى المدخل مرتديًا نظارة شمس في الظل. كانت الصورة شديدة الرداءة ومثيرة للسخرية. أول مرة أبكي في الزحام. ظللت أفرك عيني حتى توقفت عن البكاء. أغلقت الصور وفتحت ملف الملاحظات «Notes» على الموبايل لأكمل مهمتي الثقيلة. كنت قد قررت إرسال رسائل لعائلتي بمجرد صعودي إلى الطائرة لأخبرهم بالحقيقة. لن أحمّل أمي مشقة انتظاري لمدة عام. بدأت في كتابة مسودات للرسائل التي سأرسلها لكل من أمي وأبي وياسمين. لا أعلم ماذا سأكتب لآدم. فلنؤجل هذه المشكلة قليلًا.

يرن هاتفي.. ياسمين تتصل فيديو على أحد التطبيقات المتصلة بالإنترنت. أقفل الخط واتصل صوت فقط. يأتي صوتها متقطعًا بسبب شبكاتنا الرائعة.

– إنت يا متخلف! بتعمل إيه برة البيت؟

أرد ضاحكًا:

– بشوف العيال. وائل وكريم.

– ما انا عشان كدة كلّمتك فيديو الأول. عشان أورّيك الختم اللي على قفايا. وائل وكريم إيه اللي سايب أمك وأخوك عشان تشوفهم؟ دا إنت تلاقيك مسافر طفشان من خلقهم. الحكاية فيها بت.

أضحك وأقول:

– اتكلمي عن الأنثى بشكل أحسن من كدة.

– قولي إيه الحكاية؟ نمت مع واحدة ورايح تقولها مش هينفع نكمل عشان رايح كندا؟ ولاهتقولها عانقيني فإني لن أعود؟

– أنا مسافر الفجر. أقضي آخر ساعة وانا بتفرج على أمك بتعيط وأبوكي وأخوكي بيناكفوا في بعض؟

– اسمها إيه؟ ابعتلي صورتها.

– مش عايز أفورة. دي أول مرة نخرج لوحدنا يعني ممكن الموضوع يطلع أي كلام.

– ابعتلي صورتها وإلا هدّي التليفون لفارس وأقوله يصرّخ في ودنك.

أسمع صوت فارس يصرخ فتسكته وتقول:

– مش دلوقتي يا قلب مامي. لو خالو مبعتش الصورة هسيبك تصرّخ براحتك.

أضحك وأنا أدخل حساب رضوى على الفيسبوك وأختار أجمل صورة. هل أرسل صورتها بالنظارة أم بدون؟ سأرسل صورتين واحدة بنظارة وواحدة بدون. أختار صورًا من أوضاع لا تجعلها تبدو جميلة ولا تظهر أنفها كبيرًا. أثناء اختياري للصور أسمع ياسمين تتشاجر مع فارس ابنها ذو السنة والنصف. يريد أن يأخذ الموبايل ليسمع أغنية «baby shark» وهي تمنعه فيصرخ. اتخيّلها تحمله بيد واحدة وترفعه بعيدًا عن الموبايل. تحاول إقناعه بالحسنى وتصل لحل وسط.. تغني هي له «baby shark» يبدآن في الغناء معًا. سينفطر قلب ياسمين حين تعرف. اخترت صورًا معتدلة وأرسلتها. أسمع في صوتها شيئًا من الرضا.

– حلوة بس مش حلوة أوي. يعني هتستنّاك. الواحد مينفعش يسافر من غير حد يستنّاه.

لن ينتظرني أحد ولن أعود فقد انتهى هذا المكان بالنسبة لي. أبتسم وأقول أنني وصلت. أطلب منها أن تسلّم على سليم زوجها وتقبّل فارس وأقفل الخط.

أنزل من الأتوبيس وأنا أنظر إلى الأم وابنها. يقفز الولد تجاه الشباك من أجل الهواء فتصفعه أمه بقوة أكبر من أي صفعة سابقة. ينظر لها الولد في تحدٍ و يرد لها الصفعة. تحرك الأتوبيس بعيدًا فلم أرَ ما حدث بعدها.

باقي 15 ساعة

وصلت في موعدي. لا أتأخر عن مواعيدي أبدًا وهو التزام نابع من خوفي من الرفض سواء في مواعيد العمل أو المواعيد العاطفية أو مواعيد الأصدقاء. على الأقل سيقولون «مبحبش اللي اسمه هشام دا. بس مواعيده مظبوطة».

لم تصل رضوى بعد. اتصلت بها فلم ترد. هذا مقلق. لن أتصل ثانية كي لا أبدو يائسًا. أنظر إلى المطعم عبر الزجاج. إيطالي أنيق ديكوره يشبه ديكورات أربعينات القرن الماضي. إضاءة كل طاولة تأتي من مصباح أصفر اللون معلق فوقها. المطعم خالٍ من الزبائن إلا طاولتان واحدة بها امرأة جميلة تطعم صغيرها وأخرى لرجل أربعيني ينتظر شيئًا في قلق. الساعة ما تزال الثالثة. سيمتلئ المطعم بالزبائن بعد ساعة أو اثنين.

أبريل 2009. الصف الثالث الثانوي. الحياة ليست جيدة أو سيئة لكنها رتيبة ومتوقعة. في الصف الثاني الثانوي حصلت على 99٪. أبي فخور بي لأنني لو حافظت على نفس المعدل أو أقل قليلاً سأدخل كلية الطب أو الصيدلة أو طب الأسنان مثل ياسمين. أسمع

عبارات التشجيع والثناء كل يوم. على الغداء يتركون لي نصف فرخة أو ثلاث قطع لحم أو سمكتين. يتركون لي نصيب الأسد من الفاكهة. يستدعيني أبي لمشاهدة المباريات كل أسبوع. لا أحب الكرة لكنها فرصة جيدة لممارسة هوايتي في الشرود. يجعلونني أشاهد فيلمًا كل أسبوع وأخرج مرة كل أسبوعين. الكل كان ينتظر مني الكثير وأنا انتظرت مني الكثير أيضًا.

تتوطد علاقتي بنادر ببطء وثبات. صار يثق بي ويجعلني أصوّره بكاميرا الموبايل ويعطيني جهاز الmp3 لأسمع أغاني تامر حسني ولؤي وواما و Backstreet Boys و Evanescence وإليسا.

تطورت مهاراتي في الplaystation وصرت أخسر من نادر بفارق هدفين بدلًا من خمسة. علّمته لعب الطاولة والكونكان ولعبنا الشايب بأحكام. «ألعاب جدو» كما يسميها. يساعدني في الفيزياء واللغة الإنجليزية وأساعده في اللغة العربية والاقتصاد. سألته في أحد الأيام ونحن على أحد المقاهي أشرح له تاريخ تطوّر العملة من ملزمة الاقتصاد:

– إنت ليه بتركب أتوبيس؟ أبوك يقدر يديك فلوس تاكسي أو يجيبلك عربية بسوّاق.

– عشان أشوف الأشكال اللي زيّك.

يضحك ثم يكمل:

– أبويا عايز يحسسني بقيمة الفلوس بقى وكدة وإن مفيش حاجة جت بسهولة. فخور أوي. بيقف وسط صحابه يقولهم أنا ابني بيروح الدرس بالأتوبيس. بيتشعبط زيّه زي الناس. ابني راجل. هو يتفشخر وأنا يطلع عين أمي.

أضحك وأشفق عليه قليلًا. يباغتني ويسأل:

– هشام هو إحنا عايشين ليه؟

سألني وهو يضحك. أفزعني السؤال فتصرفت مثلما أتصرف كلما فزعت. قلت الإجابة التي أحفظها:

– الدنيا امتحان للآخرة. تنجح تدخل الجنة تسقط تخش النار.

نظر للسماء ضاحكًا ثم قال:

– مستر أنا خلّصت. ممكن أسلّم ورقتي وأمشي؟

قلت ساخرًا:

– خلصت؟ دا إنت لسة في الأول.

– لا خلصت يا إتش. أنا أقدر أحكيلك دلوقتي كل حاجة هتحصل في حياتي. هدخل صيدلة. لو مجاليش مجموعها هدخلها في جامعة خاصة. هسقط سنة في الكلية بعدها أتخرج. أبويا يجيبلي

شغل مندوب في شركة أدوية multinational. بعدها يفتحلي صيدلية. الصيدلية يبقو اتنين. الاتنين يبقو عشرة. أتجوّز. أخلّف عيال أعملّهم نفس اللي أبويا عملهولي. وهما يخلّفوا عيال. و نكمّل في سكة الولا حاجة.

يتكلم نادر معي بحرّية لأنني الوحيد الذي لن أتهمه بالجحود ولن أحكي له عمن يأكلون من صناديق القمامة وعن فقراء الصومال.

– أمال إيه الحاجة اللي إنت عايز تعملها؟ إيه اللي هيخلّيك تقعد شوية ومتسلّمش الورقة بدري؟

– إني مدفعش الحساب.

– حساب الآخرة؟ مينفعش. ربنا هيحاسبنا كلنا.

– مش حساب الآخرة. قصدي حساب القهوة. تيجي منحاسبش ونجري؟

– بس دا خوخة. القهوة اللي شايلانا. ممكن ميدخّلناش تاني.

– بعدين هبقى ادّيله الحساب الطاق طاقين يا عم. عايز أجري دلوقتي.

– يللا.

يقف ببطء ثم يركض فجأة. أدخل الملزمة في الحقيبة فأتأخر عنه. أركض خلفه. نركض في الزقاق الضيق خارجين من القهوة إلى

الشارع الرئيسي. يسبقني نادر بخطوات. أنظر خلفي فأرى خوخة صبي القهوة يركض خلفنا وهو يشتمنا بأقذع الألفاظ. يقترب خوخة مني ويمسك بي فأدفعه بعيدًا وأواصل الركض. يؤخر نادر نفسه ليمسك بيدي ونسرع معًا. ركضنا لآخر الشارع حتى تأكدنا أن خوخة توقف ثم ركعنا على ركبنا وضحكنا في هستيريا.

نظرت إلى نادر. رأيت في عينيه خواء ولا مبالاة. نفس هذه النظرة سأراها بعد أعوام حين رأيته يقود على سرعة 200 كم في طريق السخنة وهناك سيارة تسير أمامه عكس السير. وفي إجازة تخرجه حين شرب زجاجتي ويسكي في ربع ساعة. وعندما قفز من على اليخت المتحرك في الماء واختفى يومًا كاملًا. كنت أظن أن الرغبة في كسر الملل هي ما يدفعه لهذه التصرفات. فيما بعد عرفت أن الأمر أكبر من ذلك. لكنني عرفت متأخرًا.

بدأ معسكر الامتحانات. توقف نادر عن الذهاب إلى غول الكيمياء لأن الغول يأتي إليه يشرح له في منزله مقابل مبلغ خرافي. لم نتقابل إلا مرتين أو ثلاث مرات أتى فيها نادر تحت منزلي ووقفنا قليلًا. حللت امتحانات السنين الفائتة حتى عام 79. ودليل تقويم الطالب وامتحانات الكتب الخارجية ومجموعة أسئلة عجيبة تسمى الأولمبياد. الامتحانات أتت سهلة. توقعت درجات مثل العام الفائت أو أعلى قليلًا.

سافرنا إلى مرسى مطروح للمصيف في انتظار النتيجة. عامان من الرتابة والملل والملازم والامتحانات والضغط العصبي وعبارات مثل «اتعب دلوقتي عشان ترتاح بعدين» التي يرد عليها خالي ب «اتعب دلوقتي وهتتعب بعدين برضو» ثم يضحك في سماجة.

كنت أنوي القفز في الماء بمجرد وصولنا لكن قطار النوم تعطل فوصلنا في السابعة مساءً ونزول البحر ممنوع ليلًا. انطلقت وحيدًا على الكورنيش ومشيت كثيرًا حتى خيّل إلي أنني وصلت إلى ليبيا. وجدت تاكسي فأوقفته وقلت له عنوان الشقة. دخلت عليهم الشقة في سعادة لأجد أمي وأبي وياسمين ينظرون إليّ في وجوم، بينما آدم يضرب الكرة في الحائط ويستقبلها ثم يضربها من جديد. طلب مني أبي الجلوس بجواره ففعلت. قال في ضيق:

– إنت عارف إن ثانوية عامة مش كل حاجة. وأهم حاجة إنك تكون ناجح في أي حاجة بتعملها. في مهندسين مش لاقيين ياكلو وفي خرّيجين تجارة مليونيرات. عايزك تعرف إننا مبسوطين بيك وبمجموعك وفرحانين بنجاحك.

كلام جميل لولا أنني لم أرَ أيًا منه على وجهه. قالت ياسمين لتطفئ فضولي.

– 95٪. بالمستوى الرفيع.

هذا ببساطة مستحيل. أعرف ورق إجابتي جيدًا وأحفظ كل إجابة وأعلم كم درجة سأنقص تقريبًا. على أسوأ الأحوال سأحصل على 97٪ .

– مستحيل. هعمل تظلُّم وآخد الدرجات الناقصة دي.

قال أبي من بين أسنانه:

– متأكد؟ لو دي درجتك يابني فإحنا فخورين بيها.

قلت له في تحدٍ أنني متأكد. أخذنا حقائبنا كما كانت وعدنا إلى القاهرة دون أن نرى الشمس تشرق على البحر.

بابا. قررت بعد انتهاء المنحة أن أبحث عن عمل وأكمل حياتي هنا في كندا . سأشتاق إليكم جميعًا. أتمنى أن تكون سعيدًا من أجلي لأني أفعل ما أحب.

مسودة رسالة لم تُرسل لأبي

بسبب عدم الصدق والقصر الشديد

باقي 14 ساعة و40 دقيقة

أعاني دائمًا من ظاهرة غريبة عند انتظار أحدهم. أظل أراقب وجوه الناس بحثًا عمن أنتظره. أظل مركزًا حتى لحظة معينة أشرد فيها لأكتشف أن من أنتظره واقف أمامي أو خلفي أو يتصل بي ليقول أنه سبقني.

لذلك قررت الشرود في انتظار أن أرى رضوى فجأة. لكن على عكس ما يحدث دائمًا نظرت بعيدًا تجاه التقاطع فرأيتها من بعيد. بيضاء ممتلئة الجسد ترتدي طرحة رمادية وبلوزة حمراء واسعة طويلة وجينز أزرق.

رضوى ضيقة العينين بارزة الأنف ممتلئة الخدّين ترتدي نظارة كبيرة مدوّرة. تمشي مستعجلة استعجال مَن يعرف أنه متأخر ومن يريد التخلص من نظرات الناس في الشارع وضوضائهم.

رضوى تضيء وسط شارع مغطى بالتراب والدخان والحزن. تتفادى الاصطدام بالناس أثناء مشيها فتبدو كمن يرقص رقصة سريعة على إيقاع لا يسمعه سواي.

شعرت بشيء بين السعادة والخوف والرهبة والتوتر. شعور لم أشعر به منذ اصطدمت بسلمى هاني أمام درس اللغة الفرنسية في الصف الأول الإعدادي حين ضحكت لي وابتعدت في خجل.

لأول مرة أفكر كيف سأكلم رضوى. وكيف سأقضي معها اليوم وفيم سنتحدث. وشعرت بخوف من أن تنفّرها طريقة أكلي أو يضجّرها حديثي الممل.

نظرت إليها فوجدتها اقتربت ونظرت إليّ مبتسمة فنسيت قلقي وابتسمت. صافحت يدها الطرية الناعمة وهي تقول:

– آسفة. كنت متخيلة المترو أسرع بس طلع بعيد عن المطعم فمشيت كتير.

ابتسمت لها وقلت:

– مش مشكلة أنا متعود أستنى.

قبل ثلاثة أشهر لم تكن رضوى في حياتي.

كنت قد تلقيت خبر حصولي على منحة لدراسة فن التصوير في جامعة «أوكاد» في «أونتاريو» بكندا. بدأت في إجراءات الحصول على التأشيرة وتوقفت عن قبول أي أعمال متعلقة بالتصوير. أفراح أو إعلانات أو حفلات تخرُّج.

كنت جالسًا في البنك منتظرًا دوري في ملل ألعب لعبة ساذجة على موبايلي حين أتاني اتصال من رقم غريب فتجاهلته لأكمل اللعبة فاتصل من جديد فأغلقت الخط في وجهه فاتصل مرة ثالثة فاضطررت للرد. أتى صوت رضوى رفيعًا محرجًا.

- هشام حسن؟

- أيوة. مين حضرتك؟

- رضوى عبد الرحمن. مسئولة الثقافة في اتحاد طلبة (....).

وذكرت اسم جامعة خاصة من ثلاثة أحرف. كما ذكرت أنها في هندسة قسم عمارة. هذه حفلة تخرُّج إذًا.

- كنت عاوزة حضرتك تيجي تصور الphoto day بتاع تخرُّج الدفعة.

- للأسف أنا مشغول جدًا الفترة دي. ممكن أرشّح لك حد كويس ي...

- أنا عايزة حضرتك االلي تصورنا. قولي حضرتك فاضي امتى ونظبط نفسنا على مواعيدك.

-بعتذرلك جدًا. أنا مش هكون متاح الفترة دي خالص.

- هتكون متاح امتى؟ في الصيف؟ مفيش مشكلة نستنى.

لم يفلح الكذب معها. إذًا هي الحقيقة الجافة.

– حضرتك أنا مش هكون متاح تاني أبدًا. بطلت تصوير. أنا مسافر برة مصر خلال كام شهر.

كان من المفترض أن يكون هذا الرد كافيًا لتغلق الخط لكنها قالت بنبرة هادئة:

– جميل. اختار أي يوم فاضي قبل ما تسافر تصوّرنا فيه.

كانت هذه وقاحة أثارت غضبي وذهولي. قلت:

– حضرتك في مليون واحد بيصوّر! قلت لحضرتك إني مش فاضي.

– محدش بيصوّر زيّك. محدش هيعمل الفكرة اللي في دماغي غيرك.

هاتِ ما عندك يا باشمهندسة! هؤلاء المتخرجون وأفكارهم. بالتأكيد ستقول لي فكرة صوّرناها مائة مرة على الأقل وتقول أنها جديدة. هل سترتدون بدلاً وفساتين كلاسيكية أم سترتدون جلابيب ويشمك؟ أم ستجلبون ألوانًا كثيرًا وتسكبونها على بعض لأنكم مرحون جدًا.

تكمل:

– عارف وإنت في الكلية بيبقى عندك أحلام وتصور عن مستقبلك هيكون عامل إزاي. حاجات زي إنك هتلف العالم. هتساعد الناس. هتمشي ورا حلم معين. هتتجوز اللي بتحبها. بعد التخرج الأحلام دي بتضيع. إحنا عايزين نمسك الأحلام دي ونصوّرها. معرفش إزاي. ممكن نصوّر كل واحد صورة لوحده ويقول جنبها كلمة تتكتب وتتعمل في كتاب صغير. أو نصوّر كل واحد بيعمل حاجة بيحبها. عايزاك تساعدني في دا. عشان كل ما الدنيا تاخد كل واحد فينا نبص على الصور دي ونرجع تاني ع الطريق الصح. و حتى لو مرجعناش. نبص لها ونضحك على براءتنا أو على هبلنا.

صمتت للحظات. هذه سذاجة مثيرة للإعجاب. لماذا أنا بالذات؟ أي أحمق سيفعل ما يريدون.

– أي مصور ممكن ي...

– لا مش أي مصور. هحكيلك حكاية. من سنتين كنت نازلة كافيه في الزمالك أرسم مشروع مع واحدة صاحبتي. أوبر مشي من طريق غلط. اتخانقت معاه ونزلت وقررت أمشي حتة صغيرة. وأنا ماشية لقيت معرض مكتوب عليه «وجوه القاهرة الحزينة». فكرت في ذكاء العنوان. حزينة تنفع للوجوه وتنفع للقاهرة. دخلت. صور بورتريه لوشوش الناس في الشارع. فكرة بسيطة. عادية. كليشيه.

- شكرًا.

- مقصدش والله. قصدي رغم بساطة الفكرة لكنها متنفذة بمنتهى الجمال. في حاجة ساحرة في الصور مخلليها تنطق وتتحرك لدرجة إن في وشوش منها جت لي في الحلم بالليل. حفظت اسم المصور وقررت إني لازم أشوفه وأشتغل معاه. جه يوم تخرجنا. فكرت في الفكرة اللي قلتلك عليها. جبت رقمك وأديني بكلمك. لو مش عايز تعمل الشغل براحتك. ممكن تفكر في الموضوع كإنه ماتش اعتزال.

أعجبني إصرارها. وأحببت صوتها لكنني لم أعترف لنفسي بذلك. قلت لنفسي أن حفل تخرج سخيف آخر لن يكون نهاية العالم.

بعدها بدقائق أرسلت لي صورًا على الواتساب توضح تصورها عما تريد. من وقتها لم يتوقف كلامنا. قبل يوم التصوير تؤكد عليّ الموعد والترتيبات بعد يوم التصوير أرسل إليها نماذج من الصور وهي تطلب تعديلات خاصة بالألوان والخلفية والكتابات. تعديلاتها كانت سخيفة في البداية ثم أصبحت ذكية ومهمة.

دخلت رضوى حياتي بساطة وسهولة. أصبحنا نتكلم كل يوم على الواتساب أو الهاتف. أرى شيئًا مضحكًا فأرسله لرضوى متخيلاً رد فعلها. أتعرض لموظف سخيف في إجراءات سفري فأحكي لها الموقف. أرى جدة عجوز تمشي مع بنتها فأصوّرهما لرضوى من

بعيد. أفكر في سؤال وجودي يشغلني فأسأل رضوى. أعتقد أنها كانت تفعل نفس الشيء. كانت رضوى ونسًا طيبًا في أيامي الأخيرة في مصر.

علمت رضوى بموعد سفري قبل أسبوع فأرسلت إلي تعاتبني لأنها عرفت موعد السفر متأخرة فقلت لها:

– ولو كنتي عرفتي بدري كنتي هتعملي إيه؟

– كنت هعزمك ع الغدا.

– طب م تعزميني.

– عندي تسليمات كتير ومش هفضى قبل يوم الاتنين؟ وإنت بتقول مسافر فجر التلات. هينفع؟

– هينفع.

وها نحن الآن جالسين في الطاولة المحجوزة لنا التي تطل على الشارع. ديكور المكان الإيطالي مع منظر الشوارع وصوت لويس أرمسترونج القادم من سماعات متناثرة في كل مكان ولا مكان يعطيني إحساسًا محببًا بأنني في أوروبا. نأكل الباستا في حذر خوفًا من أن يبدو أحدنا سوقيًا. نتفادى إحداث أصوات بأفواهنا أو أصوات ارتطام الشوك والسكاكين بالأطباق. قالت:

– تعرف. لو أقدر أهاجر كنت هاجرت.

– تقدري. هتبقى معركة جامدة مع أهلك بس لو أصرّيتي شوية هيوافقوا.

ضحكت وقالت:

– هما ممكن يسيبوني أمشي. أنا اللي مش هقدر أسيبهم. اللي بنيته هنا مش هعرف أبنيه هناك. أمي. إخواتي. صحابي. إنك تنسف كل شيء وتبدأ من جديد حاجة صعبة جدًا. ومتضمنش اللي هتبنيه هيبقى زي اللي سيبته ولا لأ. ولو متبسطتش ورجعت. هترجع تلاقي كل حاجة زي ما سيبتها؟ أكيد لأ.

– أنا مش مهاجر. سنة وهرجع.

لماذا أكذب الآن؟ قالت في فهم:

– حاجات كتير ممكن تتغير في سنة.

أكملت ضاحكة:

– في سبب أهم يمنعني من السفر. القطط. أسيبهم لمين؟

قلت ضاحكًا:

– ممكن تاخديهم معاكي وتنقذيهم من هنا.

سألت مبتسمة:

– بتحب الحيوانات؟

ياسمينة

كنتِ حليفي الوحيد في البيت والسبب الوحيد لعودتي كل ليلة. تتصلين بي تطلبين علبة زبادي أو لتر بيبسي أو شيكولاتة فأشتري ما تريدين وأعود لأكتشف أن لدينا زبادي وبيبسي وشيكولاتة لكنك كنت تريدين التأكد من عودتي. لم تفشل هذه الحيلة معي في أي وقت. كذبتِ عليّ كثيرًا وفي كل مرة أصدقك. منذ كنا صغارًا حين تركونا وحدنا وقلتِ لي أنني حين أنام ستأتي أمي أسرع. مرورًا بقولك أن أبي وأمي يحبونني وصولًا إلى كذبة أنك سعيدة في حياتك الآن.

في عيد ميلادك الفائت قلّبت في ألبومات الصور لأستخرج صورة جيدة أضعها على إنستجرام. لم أجد لنا وحدنا سوى صورة واحدة لي وأنا في الثانية من عمري وأنتِ في السادسة واقفة في شموخ تبتسمين للكاميرا وتحضنيني في أمومة وأنا أنظر بعيدًا عن الكاميرا في خوف. هذه الصورة تلخّص علاقتنا.

أنظر إلى الصورة ثم أرى وجهك الذابل الآن. سأصدق أنكِ سعيدة وأنكِ تفعلين ما تحبين. وأنكِ لست هاربة مثلما أفعل الآن. لأنني أصدقك دائمًا.

سأزورك في غربتك. سنجلس معًا نضحك ونتذكر مواقف الطفولة والشباب المبكر ونمارس النميمة ونشعر بسعادة حقيقية ثم يأتي موعد الرحيل فنعود إلى الحزن والذبول. لكنني سأظل أصدق كذبك للأبد.

رسالة وداع كتبتها لياسمينة

احتفظت بها ولم أرسلها

خوفًا من أن يراها سليم زوجها

ويجعل حياتها أسوأ.

باقي 14 ساعة وعشرون دقيقة

كنت أحب الحيوانات حتى يومي الأول في كلية الطب البيطري. نعم. انتهى بي المطاف في كلية الطب البيطري. قدمت التظلُّم ورأيت ورقة إجاباتي وكانت درجاتي التي وضِعت لي سليمة تمامًا.

لا أعلم كيف كتبت تلك الإجابات الخاطئة بينما كنت أعلم الإجابات الصحيحة وتدربت عليها عشرة آلاف مرة. سيظل هذا لغزًا بالنسبة لي للأبد.

تقول أمي أن زوجة خالي عملت عملًا لأولادها كي لا يوفقوا في الثانوية وهو تفسير وجيه لولا أن ياسمين وآدم حصلوا على مجاميع مرتفعة ودخلوا ما يحبون من كليات. لماذا يعمل السحر معي فقط؟ رغم أني كنت أتوضأ وأقرأ القرآن قبل كل امتحان.

بسبب التظلمات تأخر التحاقي بالكلية. لذلك حين ذهبت لتقديم أوراقي كان العام الدراسي قد بدأ بالفعل. من المفترض أن تذهب أمي معي لتقديم أوراقي لكنها مرضت صباح ذلك اليوم ولم يستطع أبي الحصول على إجازة من عمله فذهبت وحدي. على البوابة رمقني موظف الأمن بازدراء كأني لص أتى يسرق البهائم من الكلية

ولم يدخلني إلا بعد أسئلة كثيرة وتدقيق في أوراقي. سألته عن شئون الطلبة فوصف لي وصفًا نسيته بعد ثانيتين.

دخلت من البوابة فكان أول ما رأيت كلبًا ضالًا يضارد كلبًا آخر راكضًا بسرعة. يلحق به فيتعاركان. ابتعدت عن الكلبين قدر المستطاع ومشيت بحثًا عن شئون الطلاب. بحثت عن زميل أو زميلة لأسأله فوجدت الوجوه كالحة جادة تمشي أو تركض جيئة وذهابًا فقررت اتباع حدسي. اتجهت يمينًا فوجدت ساحة خضراء واسعة. أحسست لوهلة أنني سأحب هذه الكلية.

أكملت مسيري في الساحة الخضراء فشممت رائحة روث البهائم فأكملت مبتعدًا عن الرائحة لأكتشف أنني أمشي تجاهها. رأيت مجموعة من البنات القصيرات النحيلات بالبالطو الأبيض يحاولن إعطاء حقنة لحصان يقاوم فيمسكه رجل ضخم يشبه المخبرين بقوة. أكملت مسيري لأجد بقرة نائمة على جنبها تتألم و...

تلد! بقرة تلد عجلًا صغيرًا والطبيبة تُخرِج العجل من بطنها بما يحيط به من سوائل!

خرجت من باب الكلية ولم أعد أبدًا.

أخفيت عند نادر بطاقة ترشيحي وأوراقي وأقنعتهم في المنزل أنني التحقت بالكلية. اشتروا لي بالطو طبي وملابس جديدة وموبايل بكاميرا من أجل الكلية.

كنت أنزل كل يوم من البيت مع ياسمين فتوصلني إلى الكلية ومن هناك أنطلق. كانت أيامًا جميلة. كل يوم كنت أكتشف مكانًا جديدًا. زرت المتحف المصري وقصر الأمير محمد علي ومجمع الأديان بمصر القديمة وركبت فلوكة في النيل. كل هذا وحدي. حفظت مترو الأنفاق والأتوبيسات وصرت أجيب أسئلة التائهين. أصوّر ما يعجبني بكاميرا الموبايل الحقيرة. تعجبني الصور في البداية ثم تضحكني سخافتها.

حين أتعب أشتري أي كتاب أجده أمامي وأجلس على مقهى أقرأ وأستمع إلى محادثات الناس العشوائية. لم أكوّن صداقات لكن كوّنت معارف تسمح لي بقضاء وقت لطيف. تعرفت على موظفين متهربين من أعمالهم وسائقي حافلات وبائعي كتب وصبيان ولعة وصعاليك مثقفين.

حين كانت تسألني أمي أو ياسمينة عن أصدقائي من الكلية أحكي حكايات مختلقة عنهم مستوحاة من حكايات معارفي الحقيقيين. فقط أغيّر الأسماء والأماكن.

حفظت القاهرة عن ظهر قلب. عرفت الأيام المزدحمة. الإثنين والثلاثاء والأربعاء. وعرفت متى أتفادى الشوارع بشكل نهائي. الأسبوع السابق لرمضان والأسبوع السابق للعيد.

كنت أقول لأهلي في المنزل أنهم أعطونا إجازة في هذه الفترة. عرفت أي أتوبيس أقل ازدحامًا وفي أي وقت. عرفت عربة المترو التي يجب أن أستقلها لأكون قريبًا من السلم الكهربائي عند النزول. تعلّمت شراء أي شيء بأعلى جودة وبأرخص سعر وتعلمت المهارة الأهم. الفِصال مع البائعين. عرفت أن القاهرة أجمل مدينة في العالم طالما أنك غير مُطالب بالعمل داخلها.

زرت نادر في جامعته أكثر من مرة وهالني ما رأيت. يوجد لديهم مطاعم ومقاهٍ عالمية ومسرح ضخم وملاعب. ما زلت لم أر في حياتي بنات أجمل ممن في جامعة نادر. كنّ جميعًا صديقاته يسلمن عليه ويأخذنه بالحضن. كان منبهرًا وسعيدًا. لم أحسده لأن حياتي وقتها كانت أروع بكثير. كنت أريه الصور على الموبايل فينبهر ويصر أن أحترف التصوير فأضحك خجلًا للمجاملة اللطيفة.

طال الفصل الدراسي. سألني أبي في شك عن الكتب الدراسية فصوّرت بعض الملازم من المكتبات وكنت أدخل غرفتي متظاهرًا بالمذاكرة. ألعب مع القط «فتحي» وأحمله متظاهرًا بأنني أفهم كل أعضاءه وحركاته فيخربشني ويعضني. يسألونني أسئلة عن الحيوانات وجسم الإنسان فأجيب إجابات من الكتب والمعلومات التي أقرأها على المقهى.

لم يدم الوضع بالتأكيد وإلا ما كنت وصلت إلى ما وصلت إليه الآن. لم أعلم أن أبي لديه صديق يعمل أستاذًا بكلية العلوم في نفس الجامعة التي أتظاهر بالذهاب إليها. اكتشفت هذا بالطريقة الصعبة. اتصل به أبي ليجلب النتيجة من الكنترول. ما اسم ابنك يا بشمهندس حسن؟ هشام؟ متأكد؟ سألت مائة مرة ولا يوجد طالب باسم هشام حسن عبد السلام.

كان يومي مرهقًا. ذهبت إلى جامعة نادر على أطراف القاهرة وراكبًا 3 مواصلات لأحضر حفل محمد حماقي ونيكول سابا. رقصت كثيرًا ووقفت أشاهد أكثر ولامست بعض الأرداف والصدور بشكل عفوي. عدت ليلاً وأنا غير قادر على تحريك قدمي لأجد أبي جالسًا في الصالة وحده ينتظرني. هادئ. صامت. سألني:

- أخبار النتيجة إيه؟

أوصيت أحد معارفي من داخل الكلية أن يخبرني بمجرد نزول النتيجة.. عندها سأقول لهم نتيجة معقولة. جيد جدًا. لا. جيد مرتفع.

- بيقولو هتنزل التلات الجاي.

- أنا جبتهالك من الكنترول.

أقرأ في الروايات دائمًا كلمة «وقع قلبي في قدمي» ولم أفهم معناها إلا الآن. أدعو الله أن يكون هناك هشام عبد السلام آخر أحضر أبي نتيجته. أكمل أبي:

- شكلك قلقان وهتموت وتعرف. بس أنا مش هقول عرفت منين لحد متقولي كنت بتنزل تروح فين كل يوم في الأربع شهوراللي فاتت. تقولي يوم يوم. تحكيلي شفت مين وشربت إيه ولا أدمنت إيه وصرفت فلوس الكلية والمواصلات والملازم في إيه؟

أمسك أبي بمفاتيح سيارته في تأثُّر وقال:

- كانت دي هدية نجاحك. كنت هطلعلك رخصة وأدّيك العربية تروح بيها إنت وأختك الكلية. كنت هركب مواصلات عشان خاطرك. ليه كدة يابني؟ مش عايز تتعلم؟ مش عايز تبقى راجل؟

يبدو أن أبي متأثر بمسلسلات أحمد عبد العزيز. لم أطلب منه السيارة كما لم أطلب منه كل هذه الدراما. فجأة شعرت بلسعة على خدي الأيمن. لم يكن أبي. كانت ياسمين. هنا أدركت حجم خطأي.

- 4 شهور بتنزل معايا كل يوم. كل يوم بتكدب عليّا. عليّا أنا يا هشام!

أتى صوتها رفيعًا صارخًا. لم أرها غاضبة بهذا الشكل من قبل. بطرف عيني رأيت أمي تقف بعيدًا وهي تبكي. كان من المفترض أن أرد. أن أقول أنني أخشى البهائم وأشعر بالقرف منهم. أنني لم أفعل شيئًا خاطئًا وأنني كنت أتجول في الشوارع دون هدف. لم أضمن ردة فعلهم واتهامهم لي بقلة الرجولة. كنت وقحًا متبجحًا.

– مبحبش بيطري. ملهاش مستقبل. لو عايزني أتعلم كويس دخلني جامعة خاصة. بس إنت مش معاك. أعملّك إيه؟

صفعتني ياسمين مجددًا. هذا لم يكن أنا. نظرت إليها في برود ودخلت غرفتي وأنا أسمع تعليمات أبي.

– بكرة الصبح هنروح معمل تحاليل نشوف كنت بتتنيّل تشرب إيه. من بعدها مش هتشوف الشارع تاني.

لم يجدوا شيئًا في دمي. أعاد أبي التحليل مرتين ودخل معي الحمام ليتأكد أنني من أتبول في الوعاء. لم يجد شيئًا فاطمئن قلبه واستقر على أن أظل حبيس غرفتي حتى بداية التقديم للعام الدراسي الجديد. خمسة أشهر لأفكر في مستقبلي وأفكر في الجُرم الذي اقترفته.

أخذ مني الأمر ساعتان لأفكر فيما اقترفته من جُرم. وخمس دقائق لأقرر الكلية التي سألتحق بها. كلية التجارة. قضيت بقية الخمس أشهر في فعل اللا شيء. أشاهد التلفاز مع أمي. أساعدها في المطبخ. ألعب كوتشينة مع آدم. أتفادى نظرات أبي المحبَطة. والأهم. أعتذر لياسمينة.

ياسمينة تحب المسقعة أكثر من أي شيء. ربما أكثر مني ومن أمي. حين تطبخ أمي المسقعة تصنع طبقين. واحد لنا جميعًا والثاني لياسمين وحدها. تأكل منها ياسمين بسرعة وشراهة وتخطف من

أيدينا الأرغفة حتى تنهي طبقها وتأتي تشاركنا طبقنا وتكاد تخطف اللقمة من أفواهنا.

راقبت أمي في المطبخ وهي تصنع المسقعة. حفظت كل خطوة. فجرًا حين ينام الجميع أدخل المطبخ وأختبر وصفة أمي وأذوق ما صنعت يدي وبعد لقمتين ألقيه في القمامة. في المحاولة الثامنة طبخت مسقعة جيدة وفي المحاولة الرابعة عشر صرت أطبخها مثل أمي. الفراغ والحب يصنعان المعجزات.

في أحد الليالي سهرت ياسمين تذاكر في غرفتها. دخلت المطبخ ومزجت كل شيء بشكل مثالي. الباذنجان والصلصة واللحم المفروم والتوابل والحب. لم أتكلم. تخرج ياسمين من غرفتها ببيجاما لبنية منقطة أبيض وشعر معقوص للخلف ذيل الحصن. تمشي تجاه المطبخ وهي تشمشم في هيام وتقول:

– حد م الجيران عامل مسقعة. الريحة رهيبة. شكلها مسقعة طنط فاتن.

أخرجت الأطباق الساخنة والخبز الطازج أمامها ووضعتهم على السفرة. نظرت إليّ في قرف وإلى المسقعة بهيام وقالت:

– فاكرني هاجي بطبق مسقعة؟

– تيجي فين؟ المسقعة دي ليّا. لو قلتيلي كنت عملت حسابك معايا.

– إنت من إمتى بتعمل مسقعة أساسًا. ولا من ساعة ما قعدت في البيت زي الستات بقيت طباخة.

أجلس على السفرة وآكل وأنا أنظر لها بطرف عيني. تنظر إليّ في حقد ثم تجلس بجواري وتأخذ رغيفًا.

– هدوق. بس دا لا يعني بأي حال من الأحوال إننا اتصالحنا.

تغمّس قطعة لتتذوقها. أتابع ملامح وجهها التي تتحول من الضيق إلى ملامح ذئب جائع. مما يعني أنني نجحت. آخذ قطعة من الرغيف لأغمس فتضرب يدي وتأخذ الطبق من أمامي وتبدأ في الأكل. أراقبها باسمًا لأول مرة منذ شهرين. قالت بفم مليء بالمسقعة:

– قول اللي عندك.

– أولًا أنا آسف.

– دا كدة كدة.

– ثانيًا إنتي لازم تفهمي أنا عملت كدة ليه. اترعبت م الكلية دي. شفت حاجات مينفعش أوصفهالك دلوقتي عشان بتاكلي. خفت تقولي عليّا مش راجل وتجبريني أدخلها. وأنا مكنتش هقدر أرفض كلامك.

– لأ ترفض وتتخانق معايا ومع الناس كلها. دا مستقبلك إنت. لكن إنت كداب وجبان. وبتكدب عليّا أنا. دا إنت لو قاتل قتيل تيجي تحكيلي وأنا أقولك تدفن إزاي وتستخبى فين. فاهم؟

– فاهم.

– العمر مفيهوش كتير. لازم كل يوم تتعلم وتشتغل وتحب. بكرة تلاقي نفسك عجّزت وتسأل عمرك راح فين.

هذه الفكرة ستقضي على سعادة ياسمين فيما بعد. أضافت:

– جينات أمك في الطبخ الحلو بدل م تتنقل ليّا اتنقلت ليك إنت. جتك نيلة.

جلست أشاهدها تأكل المسقعة مستمتعًا بملامح الذئب الشره.

بعد هذا اليوم نتيجة ضغط من ياسمين تحسّنت شروط الحبس. صار مسموحًا لي بالنزول لشراء الخبز من الفرن وشراء الطلبات من السوبر ماركت مع عدم السماح بالتأخير لأكثر من نصف ساعة. صرت أجلس مع ياسمين نتحدث بالساعات تحكي لي عن زميلاتها الحقودات وصديقاتها الغادرات. و«أحمد» الذي يلاطفها فلا تعلم إن كان هذا اللطف لها فقط أم أنه لكل البنات. لم أصرخ وأكتئب من السجن كما توقعت. اعتدته كما اعتدت أمورًا كثيرًا بعد ذلك.

بعد انقضاء مدة عقوبتي أخذني أبي لأرى الشارع وأقدّم أوراقي في كلية التجارة. أخذتني ياسمين إلى غرفتها وقالت:

– كنت باتحرّى عنك أشوف رُحت فين لما كنت بتشتغلنا. قابلت نادر واتكلمنا كتير. بيحبك أوي. قالي إنك أحسن واحد شافه بيصوّر في حياته.

– وهو يعني شاف حد بيصوّر غيري؟

فتحت دولابها المعلّق عليه بوستر لنانسي عجرم ترتدي فيه فستانًا أسود وتبتسم في براءة وبجوار الصورة مكتوب كلمات أغنية «يا أطبطب وأدلّع». أخرجت لي حقيبة سوداء مستطيلة صغيرة لها حامل كتف. تسارعت دقات قلبي. فتحت الحقيبة فرأيتها بعدساتها وأزرارها وبطاريتها. نظرت لياسمينة في حنين. لم أحبها أبدًا قدر حبي لها تلك اللحظة. قالت:

– قالي لازم نجيبله كاميرا. قلتله إني محوّشة ألف جنيه. حط عليهم 4000 وجابلك الكاميرا. متعملش كدة تاني. وركز في دراستك وموهبتك.

الكاميرا ثقيلة. سأتعود على هذا الثقل لاحقًا. أنظر إلى كل شيء في انبهار. أنظر داخل الحقيبة باحثًا عن لوازم وإضافات أخرى. أجد ورقة صغيرة مطوية. أفتحها فأقرأ عبارة واحدة مكتوبة بخط عربي رديء أحفظه جيدًا. الكلمة كانت «كفّارة».

باقي 13 ساعة و50 دقيقة

– لو مكنتش مصوّر. إيه الموهبة اللي كان نفسك تبقى عندك؟

أجبت دون تفكير:

– الغُنا. بحسد الناس اللي صوتهم حلو. تخيّلي تغني براحتك في الحمام ومحدش يزعق لك ويقولك «وطّي صوتك يا حيوان!» لا دول كمان يقولولك «الله»!

ابتسمت وقالت:

– أكيد صوتك مش بالبشاعة دي.

– في الكلام صوتي قشطة. في الغُنا عندي زنّة مرعبة. تخلليكي عايزة تخبطيني بحاجة أول م أغني. أنا مبسمعنيش وأنا بغنّي الحمد لله الناس هما اللي يسمعو.

ابتسمت. شعرت أن الكلام بيننا بدأ ينتهي. سألتها:

– وإنتي؟ كان نفسك تبقي موهوبة في إيه؟

– الرسم. أنا برسم أوحش م انت بتغني.

– بس إنتي مهندسة معمارية.

– م دي سادس سنة ليّا في الكلية حضرتك.

خطرت في بالي فكرة. طلبت من النادل ورقة وقلم فقالت رضوى:

– معايا ورقة وقلم. عايزهم ليه؟

– هاتيهم.

أخرجت لي كشكولًا صغيرًا أزرقًا وقطعت منه ورقة وأعطتها لي مع قلم جاف أزرق. أخذت الورق والقلم وأعدتهما إليها وقلت:

– ممكن ترسميني؟

مددت لها الورقة والقلم فضحكت في خجل. تضيق عيناها بشدة حين تضحك فتبدوان كخطان صغيريان تحت حاجبيها. مثل شخصيات الأنيمي الكرتونية اليابانية. أبعدت يدي الحاملة للورقة والقلم فشعرت بنعومة يديها فدفعت الورقة والقلم تجاهها لأطيل اللمس.

– مينفعش. والله ما بعرف أرسم.

– إنتي هارياني طلبات من ساعة ما عرفتيني. دا أول طلب أطلبه منك. هتكسفيني؟

احمرّ وجهها وأمسكت بالورقة والقلم وبدأت ترسم. قالت في إحراج:

– اتكلم طيب وأنا بارسمك. مش ناقصة إحراج كمان.

- أقول إيه؟ أغنّي؟

- لا. هضحك ومش هعرف أرسم. احكيلي حاجة حزينة عشان أشعر بالشجن وأرسم وأبدع. احكيلي أول حب في حياتك. الحب الأول دايمًا حزين.

توقفت لحظات لأتذكّر. الحب الأول.

- كان عندي 6 سنين.

- أووووه! بتاع بنات.

- كنت دايمًا بلعب لوحدي. ياسمين أختي بنت كانت بتلعب بالعرايس. جيت ألعب معاها بيهم ماما وبابا بعدوني عنها عشان مطلعش شاذ. جابولي أنا عرايس رجالة. مصارعين وسلاحف نينجا وحاجات كدة. كنت بعمل بينهم ماتشات مصارعة وأحكّم بينهم. الأحق بالفوز كان بيكسب طبعًا مهما كانت انحيازاتي الشخصية.

هاجر بنت خالتي أكبر مني بسنة. بيضة وشعرها بني فاتح وعنيها خضرا وواسعة. مكنتش فاهم يعني إيه حب بس كنت على طول عاوز أبص لها. عايزها تلعب معايا. عايز أكلمها. رحت لها بالعرايس بتاعتي وعرضت عليها نلعب فرفضت وراحت تلعب بعرايس أختي. وأنا مينفعش ألعب بعرايس أختي وإلا ماما تزعقلي. قلت لازم نلعب مع بعض. عملت إيه بقى. خلعت راس واحد من سلاحف النينجا

وخلعت راس باربي وركّبت دماغ السلحفاة على جسم العروسة. عملت كدة في كل العرايس قبل ما تيجي. لما جت قلتلها عاملك مفاجأة ووريتهملها. طلعت تجري وهي بتعيط و تصرخ.

ابتسمت رضوى لي في تأثر.

– دا تصرف رومانسي جدًا. إنت كنت طفل جميل.

ضحكت وقلت:

– بس تخيّلي راس سلحفاة نينجا على جسم باربي. البنت اترعبت يا عيني. لحد دلوقتي الحوار دا مأثّر على علاقتنا. بتشوفني تسلم عليّا وهي خايفة وكل م أحاول أتكلم معاها تردع القد. تقريبًا فكراني مجنون.

– ملهاش حق. دي بادرة جميلة جدًا. هي اللي مبتفهمش.

أحيانًا لا أعلم إن كانت تفهمني ومعجبة بي إلى هذه الدرجة أم أنها تدّعي. ولماذا ستدّعي؟ ماذا تريد من شخص مسافر بعد ساعات؟

عرفت الكثير عن رضوى في ثلاثة أشهر. صباحًا كانت رضوى خفيفة الظل ذكية صوتها رفيع ومشرق. تحكي في سخرية عن أستاذ المادة الذي يرى اللوحة فيقول «صفر. عيدي كله م الأول» ويجعلها تقطّع اللوحة أمامه ثم بعدها بيومين ترسم نفس اللوحة بنفس الأخطاء فيعطيها الدرجة كاملة. أصبحت ترسم اللوحة مرتين. تظهر

له الأولى ليمزقها وتعطي له الثانية في اليوم التالي فتحصل على الدرجة النهائية مع إشادة خاصة. تحكي لي عمن يظنون أنهم فنانون ومختلفون. تقول لي ضاحكة: «دفعتي 100 واحد. كلهم مميزين ومختلفين ومفيش زيّهم ومحدش فاهمهم».

تحكي حكايات سمعت مثلها مليون مرة من قبل لكنها تحكيها بلغة مختلفة تشبه لغتي. فقط رضوى صوتها أرق ورؤيتها أجمل وتفاصيلها أدق.

ليلًا كانت رضوى حزينة بفعل الإرهاق والرغبة في النوم وتراكم اللوحات المطلوب تنفيذها. صوتها أخشن قليلًا وأكثر إثارة تحكي لي عن أختها الكبرى وأولادها المزعجين. وعن أختها الوسطى المتنمرة ثقيلة الظل. وعن أبيها الغائب على الدوام والمقيم مع زوجته الأخرى. عن أمها الحزينة والوحيدة دائمًا وعن خوفها من ملاقاة مصير أمها. عن رغبتها في خلع الحجاب وخوفها من سمعة سيئة تلتصق بها للأبد. عن أصحاب يدخلون حياتها بقوة ثم يفقدون الاهتمام ويبتعدون. وعن علاقة حب وحيدة لا تعلم كيف بدأت ولا كيف انتهت لأن الطرف الآخر هو من بدأ كل شيء وهو من قرر إنهائه.

تتكلم أكثر مني وتعتذر لأنها ثرثارة وتطلب مني الكلام فأحاول أن أكون مميزًا فأحكي حكاية مسلية أو معلومة هامة أو موقف مضحك.

في البداية كنت أفكر كثيرًا ثم صارت الحكايات تخرج مني ببساطة ودون تفكير. صرت أتكلم أكثر وأقاطعها. خاصة في الليل.

صباحًا تسألني عن عملي. عن أجمل وجه صوّرته. عن تخطيطي لحياتي في كندا. ليلًا تسألني عن أكبر مخاوفي. عن سبب سفري. عن ياسمينة. عن نادر وسبب اختفائه.

ننتمي أنا ورضوى إلى نفس المكان وإلى لا مكان.

نظرت إليها وهي مستغرقة في رسمي. عيناها الضيقتان مختفيتان تحت النظارة. خصلة صغيرة من شعرها البني تخرج من الطرحة على جبهتها فتعيدها إلى مكانها. لأول مرة شعرت أنني كنت أتفادى لقاءها كي لا يحدث ما يحدث الآن. أخرجت هاتفي وصوّرتها وهي ترسمني. عرفت أنني أصوّرها فابتسمت.

- خلصت.

أعطت لي الورقة. كأنه رسم لطفل صغير. رسمت رضوى وجهي مربعًا. عينيّ بيضاويتين. أنفي مستدير. شعري مثلث. ذقني نقط صغيرة. ورسمت جسدي دائرة كبيرة كأني سمين. كانت تنهار أمامي من كثرة الضحك بينما شعرت بتأثر شديد. ابتسمت في تأثّر وطبّقت الورقة ووضعتها في جيبي.

عزيزي نادر

كنت أتمنى أن نلتقي اليوم. للأسف لن أستطيع. ولا أنت أيضًا.

رسالة لم تُرسَل

باقي 13 ساعة و 15 دقيقة

فبراير 2009. الثامنة صباح أول يوم إجازة نصف العام. يرن هاتفي المحمول بجنون ليوقظني. رقم غريب. أغلق الخط وأنام. يرن من جديد. أغلق الخط. في المرة الخامسة اضطررت للرد مفكرًا كيف سأهين المتصل. يأتيني صوت أنثوي رقيق مذعور يقول:

– أنا ليلى مامت نادر. تعالى بسرعة يا هشام. نادر مش عايز ينزل الامتحان. معرفش ماله.

أقفز من سريري الدافئ في ذعر وعدم فهم. الكليات الأدبية تنهي امتحاناتها قبل العلمية بالتالي تبقى لنادر 3 امتحانات أعايره بهم. أرتدي أول ما تقع عليه عيني من الدولاب وأخبر أبي أنني ذاهب لأصور اليوم الأخير لامتحانات إحدى الدفعات فيسألني كيف والكاميرا ليست معي فأقول أن معهم كاميرا.

آخذ تاكسي على غير عادتي إلى البرج الذي يسكنه بميدان روكسي. أصعد الدور الثاني عشر. أدق الجرس فتفتح لي طنط ليلى مذعورة بروب أبيض مقفل عن آخره يجعلها تشبه هوانم الستينات. أفكر أنني أريد أن تشبه زوجتي طنط ليلى أو على الأقل تتصرف

وتلبس مثلها. أفكر للحظات أن أتزوج طنط ليلى نفسها وأتساءل عن رد فعل نادر ثم أتذكر المشكلة التي أتيت من أجلها. تقول طنط ليلى:

– مش عايز يقوم من السرير. حاولت معاه بكل الطرق ومفيش فايدة. مجاش على بالي غيرك. باباه لو عرف هيبهدله.

طمأنتها ودخلت غرفته وطلبت منها الانتظار بالخارج. فتحت النور فوجدته نائمًا في سريره وعيناه مفتوحتان شاردتان. نظر لي حين دخلت ثم واصل شروده. قررت البدء بدعابة سخيفة فقلت:

– لو كل واحد مش مذاكر قرر ميروحش الامتحان محدش هيمتحن.

كأنني لم أقل شيئًا. فلنجرب المزاح المهين إذًا.

– قوم يبني أمك قلقانة. كلمتني 5 مرات. قاعدة مش على بعضها من غيري.

سبّني بأمي ثم واصل الصمت. قلت:

– بلاش تروح الامتحان. تعالى نقعد ع القهوة ونقولهم إنك رحت.

– مش قادر أنزل يا هشام.

– يا نادر أهلك مش هينسولك حاجة زي كدة. أبوك هيطلع ميتينك.

– عارف. بس مش قادر.

– يبني إنت مجنون ولا إيه. طب تعالى كمّل نوم عندي في البيت. هقولهم إني لقيتك تعبان جبتك هنا.

– م خلاص يا هشام! مش لازم ترد أفضالي عليك وتعمل صاحبي! جبتلك كاميرا خدها وإنت ساكت. محدش طلب مساعدتك! اطلع برة وسيبني أنام!

كانت هذه أكبر إهانة وجِهت لي في حياتي. تركت غرفته وخرجت دون أن أقول كلمة لأمه التي ألحت علي أن أنتظر وأساعده. تركتها باكية ومن شدة الغضب عدت مشيًا إلى البيت غير عابئ بالأمطار التي أغرقتني وتسببت في مرضي طوال الأجازة. وربما تسبب نادر بذلك.

تذكرت تلك القصة حين هطل علينا المطر ونحن نمشي في شارع شريف. مطر مبكر مفاجئ لكنه أتى في وقته. نظرت إلى رضوى فوجدتها تخفي ابتسامة سعيدة. راقبتها أكثر فوجدت ابتسامتها تتسع كطفلة صغيرة ترى المطر للمرة الأولى. ثم بدأت تضحك. قالت:

– لو المطر مضايقك ممكن نقعد في مكان.

– لا. أنا مبسوط هنا.

ارتفعت ضحكاتها أكثر فوجدتني أضحك معها. أخرجت موبايلي وبدأت أصوّرها. رفضت في خجل في البداية فقلت أنا صورًا للذكرى فأخذت أوضاعًا غريبة ومضحكة. ضحكت كثيرًا وأنا أصورها ثم قلت:

– عارفة. هناك في كندا كل يوم من دا.

– كآبة أوي. حلاوة المطر هنا إنه مبيجيش كتير. وإنه بينزل ينضف الشارع ويفضيه ليّا لوحدي. هناك الشوارع حزينة المطر بيزوّد حزنها أكتر.

– إنتي رحتي هناك قبل كدة؟

– بصراحة بفتي. بس دا إحساسي. عمري ما سافرت برة مصر أصلًا.

– ولو هتسافري برة مصر هتروحي فين؟

فكرت قليلًا وهي تلعق قطرات المطر التي نزلت على شفتها ثم قالت:

– البرازيل أو الأرجنتين أو أي مكان في أمريكا اللاتينية. تخيّل ناس شبهنا وشوارع شبهنا وكمان بيرقصوا. في أحلى من كدة؟

ابتسمت عند تخيّل منظرها ترقص مع البرازيليات وتخيلت جسدها الممتلئ بالبيكيني فدخلت قطرات المطر المرة فمي فبصقتها. أكملَت:

– حاسة إن عمري ما هروح. آخري هروح تايلند في ال honey moonو السعودية لما أعجز وابني يطلّعني أحج.

– ليه التشاؤم دا؟

– محدش بيروح المكان اللي هو عايزه. كلنا بنستغل المتاح وخلاص. أمي اتجوّزت حب حياتها وكانت متخيلة إنها هتعيش سعيدة وأهو اتجوز عليها. إنت حققت أي شيء كنت عايزه؟ تعرف حد عمل اللي هو عايزه؟

باقي 13 ساعة

حين أتم آدم عامه الثامن عشر طلب مني أبي أن أعلّمه القيادة وكانت من اللحظات القليلة التي أشعر فيها أني أخ أكبر مسئول. فكرت في كل ما تعلمته عن القيادة وأخذت آدم الذي كان في غاية السعادة. جلست في مقعد القائد وجلس آدم بجواري. أعطيته أولى النصائح وشرحت له كيف تدور السيارة وكيف تتحرك وأنا في غاية الفخر وهو في غاية التركيز. قدت باتجاه أحد الأراضي الفارغة وطلبت منه أن نبدل المقاعد ففعل في حماس. قلت:

– فاكر قلنا إيه؟ نزّل فرامل اليد. دوس دبريا...

قبل أن أكمل الجملة كان السيارة تنطلق وآدم يقوم بحركات استعراضية بها كمن يقود منذ سنوات. نظرت إليه في ذهول وهو يقود بنا خارج الأرض وهو ينفجر ضحكًا.

– هاهاهاها! يا دين أمي! تعابير وشك جامدة فشخ. وإنت بتعلمني وعامل أخويا الكبير وبتاع. يابني أنا بسوق من وأنا حيوان منوي أساسًا.

ملعوبة. لكني تضايقت من أسلوبه معي. شعر بذلك وقال:

– معلش أنا كنت فرحان بنفسي فقلت أفرحك. حبيت أجيبهالك مفاجأة. متزعلش بقى إنت عارفني. امسك ولّع.

وأخرج لي علبة سجائر. كنت أتوقع أنه يدخن من طلبه للمال وبقائه في غرفته لوقت طويل ونزوله مع أصحابه في أوقات غريبة لكن لم أعلم أنه يشتري علبة وله ذوق مفضّل. دخّنت معه لأصاحبه وسعلت كبنت في السادسة عشر تذوق سيجارتها الأولى مع حبيبها فقال لي:

– والله أنا مبسوط فشخ إنك بتعلمني السواقة يا عم. هنزل أنا وإنت مع بعض كل يوم لمدة أسبوعين ونخربها. إنت مبتقعدش معايا خالص.

– وإنت اللي بتقعد بروح أمك؟

آدم هو الإنسان الوحيد الذي أعرفه ويحقق كل أحلامه. وذلك ليس بسبب براعته أو ذكائه بل لأن أحلامه شديدة البساطة. يعجب بفتاة معينة فيخطط ويسهر الليل ليقنعها تخرج معه فينجح في ذلك. يرغب في دخول كلية الهندسة فيكتب ورقًا صغيرًا به كل القوانين والمعادلات ويضعه في جوربه ويغش منه في الامتحان فيدخل الكلية. يرغب في جعل أبي فخورًا به فيخفي عنه كل شيء في حياته. يريد أن يبدو أنيقًا فيدخن. يريد أن يشتري ملابس جديدة فيأخذ نقود

الدروس ويشتري بها. آدم مثال النجاح الوحيد في حياتي. أحبه كثيرًا وأحب أن أراه يستمتع بحياته.

يهتم آدم بأن يبدو لا أن يكون. يبدو أنيقًا. يبدو سعيدًا. يبدو صايع. يبدو ذكيًا. يبدو ناجحًا. أما في داخله فكان صحراء قاحلة لا يوجد فيها أي شيء مما يبدو عليه. في النهاية ما نبدو عليه هو المهم أما ما نكونه حقًا فهو أوهام داخلنا فقط.

يجمع بيني وبين إخوتي رباط سري هو الرغبة في الهروب من سخافات أبي والسخرية من تقاليد أمي. نجد أنفسنا نتشاجر أمامهما حين يضعوننا قسرًا لنجلس معًا أو يحاولون الجمع بيننا. أما وحدنا فيحدث بيننا انسجام كامل. في سري كنت أحسد آدم على نجاحه وسعادته وكنت أستمتع بكوني أخ أكبر قادر على إذلاله وضربه على قفاه في أي وقت.

توقف المطر تاركًا بركًا من الماء في الشوارع. تمسك رضوى بيدي وهي تعبر تلك البرك الصغيرة فأشكر المطر في سري. تخطينا الكورنيش من عند ميدان عبد المنعم رياض في طريقنا إلى الزمالك. نرى العاشقين والعائلات الصغيرة تبصق قشور اللب والترمس وأكواب حمص الشام البلاستيكية في النيل. اشتريت لرضوى بعض الفول السوداني ومشينا نأكل ونبصق معًا ثم وقفت فجأة وصعدت

سور الكورنيش وجلست ظهرها لي ووجهها للنيل ففعلت مثلها. رغبت في هذه الجلسة منذ زمن لكنني كنت أخجل. فيم الخجل الآن؟ تسألني:

– جالك منين بقى؟

– هو إيه دا؟

– سوري كنت فاكراك جوة دماغي وعارف اللي بفكر فيه. عارف إنت التخلف دا. حبك للتصوير جالك منين؟

أفكر قليلًا ثم أقول:

– معرفش أعمل حاجة تانية. أنا كسول. بطيء. تحصيلي الدراسي ضعيف. قدراتي في البيع منعدمة. حاولت ألعب مزيكا فشلت. في الرسم معرفش أرسم دايرة. الرياضة أديكي شايفة جسمي. بفكر في حاجات كتير عبقرية تتكتب وباجي أكتب بيطلع قرف. ملقتش حاجة غير إني أصور الناس وهما بيعملو كل دا.

نظرت إليها فوجدتها طوال كلامي تبتسم لي في حنان. قالت:

– بس إنت موهوب فيه.

– مش موهبة. ممكن ذوق. بصوّر ألف صورة لكن عندي العين اللي تطلّع أجمل واحدة فيهم. وأديني مسافر أتعلم.

– لما تمشي مش هنبطل كلام صح؟

خفق قلبي في حزن. أعلم أنني سأكلمها شهر واثنين ثم أبدأ في الابتعاد تدريجيًا وتبدأ هي في رؤية آخرين وتنساني. أم إنها ليست جميلة جدًا وستنتظرني كما تقول ياسمين؟ الآن أفكر في العودة للمنزل فما المغزى من كل هذا سوى زيادة ألم الفراق؟

– طبعًا مش هنبطل. كلامنا كله تليفونات و texting أصلًا.

– بس أنا اتبسطت أكتر لما شفتك.

– وأنا كمان.

– إنت مش راجع يا هشام صح؟

قالتها بلهجة تقريرية تتوسل أن تكون مخطئة. مرارة في صوتها وعتاب في عينيها.

– ليه بتقولي كدة؟

– لو كنت راجع بعد سنة مكنتش فكرت كتير في سؤال هنفضل نتكلم ولا لأ.

لم أرد. ساد صمت مطبق. هل أعرض عليها أن أوصلها لبيتها أم أنتظر منها قرار الرحيل؟ لم أجرب تلك المواقف مع شخص يعجبني حقًا. نظرت لها فوجدتها تفكر في حزن. قالت ووجهها للأرض:

– طيب. ما دام مش راجع...

شدّتني رضوى بياقة البلوفر وقبّلتني. سرت حرارة في جسدي ووضعت يدي على ظهرها وضممتها بقوة. رضوى لم تجيد التقبيل لكنها أجادت التوقيت. امتدت القبلة عشر ثوانٍ أذكر كل ثانية منها وأسترجعها كلما أتت الفرصة. افترقت شفاهنا المبللة بالمطر وبشفاه بعض. أغمضت عينيها فقبّلتها قبلة أخرى فأبعدتني وهي تضحك وقالت:

- إحنا في الشارع. يللا. عندنا حاجات كتير نعملها قبل ما تسافر.

التفّت ونزلت من على سور الكورنيش. مسحورًا وجدت نفسي أنزل خلفها ومشيت بجوارها مشدودًا بخيط خفي.

باقي 12 ساعة وثلث

من خبراتي الكبيرة في التجمعات الطلابية قسمت الطلبة إلى 4 أنواع: النوع المرح المتظاهر باللطف المشغول طوال اليوم. وهو نوع يظهر في كل الصور. له مئة صديق وصديقة لكنه يحب فتاة خجولة منزوية في ركن بعيد وغالبًا ما تتركه الفتاة بعد التخرج حين يزول بريقه ويظهر فراغه من الداخل.

هناك النوع المتسلط وهو غالبًا أنثى تظن أنها محور الكون وأنني مصورها الخاص. تريد صورة لها وهي تبتسم. صورة وهي تنظر إلى الأرض في خجل مصطنع. صورة وهي تضحك مرجعة رأسها للخلف. صورة مع كل أصحابها وصورة لكل صاحبة على حدة. صورة مع شاب مسكين يحبها وتعامله كأخ وتستمتع بإبقائه بقربها لتعذيبه. ولا داعي للقول أنها صاحبة رؤية فنية وتفهم أكثر منك ويجب أن ترى كل الصور.

هناك مجموعة المهندسين. وهم ليسوا دائمًا مهندسين لكنني أطلقت عليهم ذلك اللقب لأنهم شباب مع بعضهم دائمًا ولا يلتقطون إلا صورًا جماعيًا أو صورًا فردية رافعين إبهامهم لأعلى.

تفوح منهم رائحة العذرية وهي رائحة مزيج من العرق والعطر الرجالي الرخيص.

أما النوع الخجول. وهو غالبًا أنثى. تطلب منك أن تصورها صورة واحدة أثناء اليوم ثم تختفي وتظهر لك ليلًا على الواتساب أو الفيسبوك لتذكرك بنفسها وتكلمك عن نفسها وعنك وعن براعتك وإعجابها بعملك وبشخصيتك. ثم لو كانت محجبة ترسل لك صورًا بشعرها. كل هذا دون أن تبذل أي مجهود. أعتقد أن وصف المجنونة أفضل من الخجولة. ما يجمع هذه الأنواع أنني أكرههم جميعًا دون تفرقة.

أثناء تصويري لإحدي المتسلطات وجدت نادر واقفًا في الكادر. ظننت أنني أهلوس فرفعت عيني لأجده واقفًا بالفعل. ماذا يفعل نادر في آداب عين شمس؟ طلبت منه أن يترك الكادر فرفض فطلبت منه المتسلطة الابتعاد بقسوة فوقف يمزح معها وجعلها تضحك. ثم جرى ناحيتي وخلع عدسة الكاميرا وأخذها مبتعدًا وهو يضحك ومعه تضحك المتسلطات. بكل برود تركت الكاميرا على الأرض ومشيت. فهي من «أفضاله» وهذا حقه. أتى خلفي بعدسة الكاميرا وأعطاها لي فلم آخذها وتركتها تسقط أرضًا. هناك شيء غريب في نادر لا أعرف ما هو. قال بلسان ثقيل:

- مش كفاية قمص البنات دا؟

لم أرد.

- أنا زعلان منك. طب رد عليّا اسمعني.

- مبردش غير على أمك.

انفجر ضاحكًا كأنما سمع أعظم دعابة في التاريخ.

- هاهاهاهاها حلوة!

ومد يده ليسلم عليّ فسحبت يده. قال:

- طب قولي أعمل إيه عشان تسامحني؟ إنت أكيد عارف إني مقصدش.

- مش هتقدرع اللي أنا عايزه.

- قول بس وأنا هعمله.

- تحكيلي في إيه. ليه مرحتش الامتحان يومها؟ و ليه كلّمتني كدة؟

يصمت نادر وتبدو عليه قلة الحيلة. يقول:

- مش عارف ليه؟

فأقول في نفاد صبر:

- دي الإجابة اللي كنت متوقعها. إنت مش عايزنا نتصالح يا نادر.

قال ضاحكًا:

– معرفش يا هشام. يوم أنا مبسوط وطاير م الفرحة. يوم مش قادر أقوم م السرير. ساعة كويس وعشرة خرا. معرفش يا هشام.

– مش هاخد بالكلام دا. لازم في سبب.

قال لي في برود:

– معرفش. دا اللي عندي. مش عايز تصدقني وتسامحني براحتك.

ثم بدأ يضحك. أعطيت له ظهري مبتعدًا وقلبي ينكسر غضبًا لكرامتي وحزنًا عليه. فجأة رأيت شابًا أمامي ينظر لما هو خلفي تجاه نادر ويجري وكذلك فعل شابان آخران فنظرت خلفي لأرى نادر فاقدًا الوعي. اقتربت منه وقد انخلع قلبي فرأيته يتشنج ووجهه معوج.

مددت يدي في جيبه وأخذت مفاتيح سيارته وحملناه إلى السيارة. قدت به إلى المستشفى وكانت تلك أول مرة أقود فيها سيارة. تذكرت بعض توجيهاته التي كانت كافية لتظل السيارة تتحرك. لم أعرف أين أذهب به حتى سمعت أحد الشباب يقول:

– شكله مأفور. ودّوه مركز السموم في الدمرداش.

جررت هذا الشاب معي وسمعت توجيهاته في الطريق حتى وصلنا إلى هناك. بالفعل اتضح أنه تعاطى جرعة كبيرة من مخدر

منتشر وقتها لا أذكر اسمه وكانت شهرته «الصراصير». لن أنسى نظرات الطبيبة المزدرية لنا. قاموا بعمل اللازم له وسألوني من أكون فأجبت بأنه أخي وليس له أقرباء غيري حتى لا يفكروا في أبيه أو أمه. كانت أسوأ ساعة مرت عليّ. أفكر فيما فعل بنفسه ولماذا فعل ومنذ متى وكيف خاصمته وتركته يؤذي نفسه. وما نوعية الأصدقاء التي عرفها تلك الأيام. شعرت ذنب لا حد له وتذكرت أفضاله. أتت الطبيبة في ازدراء لتخبرني أنه أفاق.

ذهبت إليه فكان محاطًا بالأجهزة والمحاليل لكنه أفاق أخيرًا. ونظرت في عينيه فوجدت ضعفًا ومسكنة جعلتني أشفق عليه أكثر. قال لي وهو يغالب ضحكة:

– واد يا هشام. اوعى تكون نسيت الكاميرا اللي أنا جبتهالك. عايزك تصوّرني كدة.

هنا اطمأننت عليه. و كان أول ما فعلته أن استجمعت قوتي وصفعته على وجهه.

عزيزتي رضوى

شكرًا على هذا اليوم. سأذكره للأبد

رسالة تنتظر الوقت المناسب

باقي 12 ساعة

شددت نفسًا من حجر المعسل وقلت:

– في صورة كانت في خيالي عن المصور. شخص غامض. وسيم. طويل. بيحمّض الصور في أوضة حمرا كدة مخيفة. وبيجيب بنات ينام معاهم في الأوضة دي. إنتي عارفة طبعًا إنه أحمر يعني جنس.

هزّت رضوى رأسها مؤمنة على كلامي وهي ترشف القهوة. أكملت:

– كنت هبقى سعيد جدًا لو اتولدت زمان. دلوقتي كل حاجة سهلة وكل حاجة ع الموبايل واللابتوب. الأشياء فقدت سحرها كدة.

قالت كأنما تخاطب طفلًا صغيرًا:

– السحر مش في الأوضة الحمرا. السحر في الاكتشاف الأول. وإنت طفل بتنبهر بكل شيء. حتى لو كانت الأوضة دي ضلمة أو نورها أخضر. أنا متأكدة إن في طفل بيشوفك قاعد في ستاربكس بتنقل الصور من الميموري كارد للابتوب وبيقول واو. الميموري كارد الصغيرة دي إزاي شايلة كل دا. كل ما بنكبر الحياة بتبقى أسهل وأسوأ.

ترشف رشفة أخرى من القهوة ثم تقول في استبشاع:

– دي أسوأ قهوة شربتها في حياتي. أنا منبهرة. هو لو قاصد يدخل مسابقة أوحش قهوة مكنش هيعملها كدة.

– حد يطلب قهوة ع القهوة؟

– جه على بالي سؤال. المصورين دايمًا بتلتقط عدساتهم أشياء مميزة بالصدفة. ملقطتش مرة حاجة حلوة كدة أو مثلًا جريمة قتل أوقعتك في مشكلة زي ما بنشوف في الأفلام.

نظرت حولي في توتر ثم اقتربت منها وطلبت منها الاقتراب وقلت بصوت خفيض:

– حصل. الموضوع دا محدش يعرفه غيري أنا وإنتي. بقولهولك عشان أنا مسافر بس. مش مصدق إن الحجر دا هينزاح من على صدري.

بدا عليها الاهتمام فاقتربت مني وشممت عطر الفانيليا ورائحة أنفاسها. قالت:

– طبعًا مش هقول لحد.

– وأنا ماشي في رمسيس. كان معايا الكاميرا. قلت أخبط أي حاجة في الزحمة يمكن تنفعني في معرض ولا بروجكت. المهم لقيت راجل شكله غريب أوي. عينيه واسعة ومليانة رعب. بيبص

حواليه. مش هنسى شكله يا رضوى. دقنه حمرا وسنانه صفرا. بص يمين. وبص شمال. بحاستي التصويرية طلّعت الكاميرا. وفجأة...

تأكدت أن كل حواسها معي الآن وأكملت:

- فجأة لقيت خط ميّة نازل من تحته. كان بيعمل بيبي.

وانفجرت ضحكًا بينما هي تضربني على كتفي وذراعي في غيظ. أنا اهتميت يا حقير!

- إنت حيوان أنا مش هصدقك تاني!

واصلت الضحك. وهي غضبت مني في البداية ثم صارت تضحك. سألتني:

- طب دا كان تصوّرك للفوتوجرافر وإنت صغير. كان إيه تصورك للحب؟

أتاني صوت الحب في طفولتي من الراديو حيث تسمعه أمي حين تطبخ. ثم أتى من الكاسيت الذي اشتراه لها جدي وأصلحه أبي. حين أسمع محمد منير أو نجاة أو عبد الوهاب أعلم أن الطعام سيكون شهيًا. حين تشغّل هاني شاكر أو عمرو دياب أو إيهاب توفيق كنت أعلم أن الأكل سيكون سيئًا. نظرية لا تفشل حتى يومنا هذا.

كبرت قليلًا وصرت أستوعب الأفلام. ورأيت في الأبيض والأسود ولدًا فقيرًا يريد الزواج بفتاة غنية ويحاربان العالم لأجل

ذلك. لماذا؟ «بحبه يا بابا بحبه». لا بأس إذًا. هناك شعور جميل يجعلنا سعداء اسمه الحب. به ومن أجله نقاتل شرور العالم ونهزمها شر هزيمة. لأننا نحب. تلك كانت فكرتي الأولى التي لم تتبدل رغم رفض غادة قريبتي لي. ثم رفض زميلتي تقى في المدرسة ثم خديجة زميلتي في الدرس. قلت لنفسي الحب بريء يا ولد وأنت الأحمق.

رأيت الحب في مرآة دولاب ياسمينة كثيرًا. أمر من أمام الغرفة وأختلس النظر لأرى ياسمينة واقفة أمام المرآة تكلم «دينا» صاحبتها وتقول:

- تفتكري بيحبني؟ ولا بيلعب؟

رأيتها تقف تحدق في وجهها وجسدها في المرآة وتتساءل إن كانت جديرة بالحب أم لا. رأيتها ترقص في سعادة وتشاهد نفسها وهي ترقص من أجل تحسين رقصها لابن الحلال القادم. ورأيتها ترقص في حزن ولمحت دمعة على خدها ولعنت كوني ولدًا وكوني صغيرًا غير قادر على مساعدتها.

رأيتها في المرآة تتزيّن لعريس صالونات بعد الآخر. رأيت بحثًا جنونيًا في عينيها عن الحب وهي جالسة مع كل واحد فيهم متبوعة بخيبة الأمل. ثم رأيت «سليم».

عرفت أن الحب ليس دائمًا طيبًا. وأنه دافع لكل الشرور. ضغط أبي وأمي عليها لتقابل عريسًا تلو الآخر لأنهم يحبونها ويريدون مصلحتها وهي تقبل لأنها تحبهم ولا تريد إغضابهم.

نظرات أبي خائبة الأمل لي كانت بدافع الحب. يظن أن العمل في وظيفة ثابتًا سيجلب لي السعادة لذلك يحتقر عملي الحر المتقلب. يحبني ويريد التفاخر بي أمام عائلته وأصحابه وهم غير مقتنعين بالتصوير كمهنة محترمة. لذا حين حضر أبي أول معرض لي نظر إلى الصور في ازدراء. وتوقفت عن دعوته إلى معارضي التالية لأنني أحبه ولا أريد أن أراه يؤذيني.

سلبني حب سليم لياسمين حليفي الوحيد في البيت. وسلبني حب التصوير احترام أهلي لي. وسلبني حب أهلي لي سعادتي وحريتي. لكن حين أنظر إلى رضوى وهي ترتشف القهوة في استبشاع كوميدي وتكشر فتختفي عيناها أقول أن الحب ليس بهذا السوء. اما عن سؤالها فأجيب:

– الحب محادثة بين اتنين. بتبتدي في لحظة ما. ومبتنتهيش.

ابتسمت رضوى في خجل. رن موبايلي فنظرت لأجد المتصل أبي. حقًا؟ بدون مبالغة لم يتصل بي أبي منذ سنة أو أكثر فقد «رمى طوبتي» منذ زمن فلماذا يتصل الآن؟ هل احترق المنزل؟ ضربه

أخي؟ ماتت أمي؟ أتتني فكرة سعيدة انه سيشتاق لي لذلك يتصل الآن. رددت.

- التليفون نوّر يا حاج.

- إنت راجع امتى؟

معقول؟ يبدو أنه يشتاق لي حقًا.

- يعني. شوية كدة يا حاج. إنت عايز حاجة؟

- عايزك تجيب معاك مفك صليبة وإنت جي.

تمام. يشتاق للمفك الصليبة إذًا وليس لابنه المهاجر.

- م تقول لآدم ينزل يجيب يا حاج أنا لسة لي شوية.

- مهو نايم مش عايز أصحيه. طب إنت مشفتش مفك الصليبة بتاعي؟

- لا والله يا حاج.

- أمك بتقول إنه وسط العدة بس أنا فلّيته ملقتش حاجة. يلا عايز حاجة إنت؟

- سلامتك يا حاج.

- استنى. أمك بتقولك متاكلش برة هي عاملة أكل.

- حاضر يا حاج. سل..

وقبل انتهاء الجملة أغلق في وجهي. نظرت لرضوى وقلت:

- معاكي مفك صليبة؟

عزيزي نادر

كم تمنيت أن أقضي يومي الأخير في مصر معك. لكنني وجدت فتاة ستعجبك كثيرًا حين تراها. ستغير وجهة نظرك في ذوقي في الفتيات.

رسالة أخيرة لنادر

باقي 11 ساعة و20 دقيقة

الاكتئاب ثنائي القطب .Bipolar disorder .

نوبات من السعادة والهياج والنشاط تصيب المريض. تليها نوبات من الاكتئاب والخمول والأفكار الانتحارية. هذه النوبات تستمر أو لأيام أو أسابيع وقد تكون بضعة ساعات. فقد يرغب نادر في صعود برج القاهرة على السلم من سعادته وحين يصل يقفز من فوقه حزنًا.

اتضح لي جانبًا آخر من نادر لم أكن أعرفه. لم أشعر بالحزن أو الذنب لأنه جانب لم تعرفه إلا أمه. عرفت أن مجموعه الضعيف في الثانوية العامة لم يكن لتأخره الدراسي بل لأنه كان يصحو يوم الامتحان غير راغب في الذهاب.

قبل اليوم الذي كلمتني فيه أمه كانت تحمله حملًا وتغير له ملابسه ثم تلقيه في السيارة وتذهب به للامتحان ليكتب أي شيء في ورقة الإجابة وبمعجزة ما لم يرسب.

كانت أمه تظن هذا توتر ما قبل الامتحان فكانت تتعامل بشكل طبيعي. نوبات سعادته وانطلاقه كانت تفسرها بحماس الشباب ونوبات اكتئابه بفترات المراهقة. لم أكن أرى نادر بشكل

يومي في الجامعة لأحكم عليه. كان دائمًا منطلقًا سعيدًا مصادقًا للجميع. حين كان يختفي بالأسابيع ولا يرد على مكالماتي كنت أظنه في فترة الامتحانات وظننت عدم رده عيبًا في صديق يمكن التغاضي عنه.

خرجنا من عند الطبيب النفسي ونادر يحكي لي ما قاله الطبيب. ثم قال:

– أي كلام يا إتش. دكتور ديلر عايز يبيع أدوية وخلاص.

كان هذا كلامًا منطقيًا لولا أن هذا ثالث طبيب نفسي يقول نفس الكلام. قال ردًا على أفكاري التي قرأها:

– كلهم نصابين. حافظين كلمتين بيقولوهم.

هززت رأسي متفهمًا ثم قلت:

– طب إيه رأيك نجرب؟ نمشي ع الدوا أسبوع ولا اتنين. لقيت نفسك كويس تكمل. لقيتهم نصابين مخسرناش حاجة.

– هما نصابين أنا عارف أنا بقولك إيه.

– يا عم وإنت جربت عشان تقول؟ كلهم هيقولوا نفس الحاجة وكلهم غلط؟ إنت قافش منهم ليه كدة؟ حد فيهم اتحرش بيك جوة؟ قولي. نيّمك ع الشيزلونج وظبطك؟

ابتسم نادر ولم يتكلم. انغلق على نفسه كما يفعل دائمًا.

– بص يلا! م إنت هتتكلم يعني هتتكلم. إنت لسة مجربتنيش في الزن.

– كآبة يا هشام. حاجة خرا إنك تروح لدكتور نفسي يعني.

– وإيه كمان؟

بلع ريقه وقال:

– كخطوة م العلاج. مهم عشان أتقبل نفسي إني أكلم اللي حواليّا وأعرّفهم بحالتي. ولاد الوسخة عايزنني أمشي رافع يافطة أقول أنا bipolar . خللي بالك عشان بعُض.

– وإيه اللي فيها؟ المرض مش عيب. زي الضغط والسكر. إنت متخلف يابني ولا إيه؟ وبعدين إنت الناس كلها بتحبك ومرضك دا هيحببهم أكتر وهيخليهم قريبين منك.

– المشكلة مش في صحابي يا هشام. أبويا وأمي.

– أبوك وأمك ناس متحضرين يا حبيبي. مش هيقولوا عليك مجنون يعني.

– إنت مش فاهم ابويا. مش هيقول عليّا مجنون. وهيدعمني ويقف جنبي وهيقول كلام جميل. بس في حاجة. في حاجة مش عارف أشرحها. نظرة شفقة بنت وسخة كدة في عينيه. شفقة على خيبة أمل على زعل على قرف.

إنت مش عارف هو بيفتخر بيّا إزاي. ابني حبيبي المتفوق اللي هيبقى أحسن صيدلي في مصر. عدّاهالي في ثانوية عامة وقعد يقول لصحابه دا نظام تعليم فاشل. في الجامعة اللي جايب 85٪ دا بيعتبر امتياز. لكن كمان أبقى مريض نفسي. وهيقعد يلوم نفسه ويقول طب أنا عملتله إيه غلط وهو صغير. مش هيلاقي حاجة غلط فهيلومني أنا. إنت مش فاهم نظرته يا هشام.

لا يعلم نادر أنني أكثر من يفهمه. الفرق أنني أتغذى يوميًا على تلك النظرة. أتناولها كل يوم على الإفطار والغداء وقبل النوم. أعلم أن أبي يظنني مريضًا نفسيًا أو شاذًا جنسيًا. تؤلمني تلك النظرة لكني اعتدت تجاهلها وهو ما يتطلب مجهودًا نفسيًا كبيرًا لا يمكنني توقعه من نادر.

– نادر إنت مريض. عندك حل من اتنين. تكابر وتخبي مرضك لحد ما يتمكن منك وتموت قبل ما حد يلحقك. يا ترفع راسك وتبقى فخور بنفسك وتتحسن وتخف كمان. واللي مش عاجبه يخبط دماغه في الحيط. عايز تخف ولا لأ؟

نظر لي ولم يرد. وضعت يدي على كتفه وضممته. شعرت برطوبة وحرارة على صدري فعرفت أنه يبكي. لم أعرف ما أفعل فضممته بقوة أكبر.

هربت رضوى من حضني وهي تنظر إلى الناس في خوف ثم تنظر لي في خجل وتقول:

- الكلام دا في كندا بتاعتك. هنا شرطة الأخلاق هتلسوعك.

احتضنتها غير مبال وهي تحاول الفكاك مني. تمسكت بها حتى توقفت عن المقاومة. مشينا معًا ويدي على كتفها وبدأت تغني.

اشمعنى بتحب تحن. عليّا وساعات بتجن

ترسمني عاشق بيأن. أنا عارفك يا صغير السن

بدأت أغني معها:

أنا عارفك يا صغير السن خايف

وأنا عارفك يا صغير السن عارف

وأنا دايمًا عارف إنك هتحن

قبل ما هتجن

أكملنا الغناء مارّين بجوار فندق الماريوت. تخطيناه ووصلنا إلى مفترق طرق إما أن نكمل من الكورنيش أو من الداخل. قادتني خطواتها إلى الداخل. إلى قلب الزمالك. الليل بسط سيطرته والهواء البارد يلمس وجهي ووجهها القابع في حضني. كنت أظن أن صوت أم كلثوم في حفلها في الحفلة هو أجمل صوت

يمكنك سماعه حتى سمعت صوت رضوى تغني في حضني. هذا هو النعيم بعينه. ذكّرني البرد بأنني بعد ساعات سأعود وحيدًا في أرض باردة كما كنت دائمًا.

يا أبو قلب فراشة للنار بتحن

وكأن دا حلم

عزيزي آدم..

سأشتاق إلى لقاءاتنا النادرة عند عودتنا ليلًا. إلى قيادتك المتهورة. إلى مكالماتك الغامضة وطلبك للمال في أوقات غريبة. سأشتاق إلى رائحة السجائر القادمة من غرفتك التي تدّعي أنها قادمة من غرفتي. سأشتاق إلى كراهية أبي الموجهة إليّ بدلًا عنك. سأشتاق إلى عصبيتك وحرارة دمك. وإلى طفولتك وتفاهتك.

أعلم أنني لن أراك إلا في عرسك حين تتزوج بفتاة جميلة تستحق من هو أفضل منك. وأننا سنرقص حتى تنهار عضلات ظهرنا. وسنضحك حتى نبكي. وسنبكي حتى يصبح بكاءنا مضحكًا. وسنسخر من الجميع بداية من حماك حتى رجال الزفة مرورًا بجميع الأطفال في الفرح خصوصًا أولاد أختك.

سنسكر وندخن ونسعل حتى تخرج رئتانا من فمنا. بعدها لن أراك حتى ترسل لي ابنك ليتعلم في كندا والذي سيكون- ياللعجب- مهذبًا مثل أمه ولا يشبهك. لأنك طيب القلب وشرير التصرفات. وأمثالك تعطيهم الحياة أكثر مما يستحقون. كما أعطتني الحياة أخًا مثلك كان أكثر مما أستحق.

رسالة وداع كتبتها لآدم تبدو موفقة هذه المرة

باقي 10 ساعات و 50 دقيقة

لن أنسى المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى شقة الزمالك. كنا في السنة الرابعة للجامعة. مرحلة التيه الجامعي كما أحب أن أسميها. أمشي مع نادر على كوبري 15 مايو في اتجاه سلم الزمالك. الشمس بدأت تغرب وبدأت اللوحات الإعلانية تضيء ينظر لها نادر باسمًا ويقول:

- إنت عارف إحنا صحاب ليه؟

- عشان حظي الزفت.

- طبعًا عشان كدة. بس كمان عشان إنت مش عايش وخلاص. عايز تعمل حاجة لها معنى. كل حاجة بتعملها بتبقى عايز من وراها حاجة. حتى لو مش عارف الحاجة دي إيه. فاهم؟ أنا بقى مفيش حاجة في حياتي لها معنى. بس أنا بدوّر المعنى دا وبحاول أساعدك. إنت بتعرف تصوّر وتقول حاجة باللي بتصوّره. أنا مبعرفش أعمل دا.

ثم ينظر لأحد اللوحات الإعلانية لشركة عقارات تظهر بنت صغيرة تجري في خضرة وخلفها فيلا وحمام سباحة ومكتوب «السعادة على بُعد خطوة منك» ويكمل:

– بس أنا حاسس إني في يوم م الأيام هعمل حاجة ليها معنى كبير. الناس كلها هتتكلم عنها. أو مش مهم الناس كلها تتكلم عنها. بس اللي هيشوفها هيفهم المعنى. أو مش شرط يفهم المعنى. بس هيحس بحاجة. أمال إحنا عايشين ليه يا هشام. مش عشان نحس بحاجة؟

– أنا مش عايز أقول حاجة باللي بعمله. انا بصوّر عشان أكون مبسوط. مش مهم يكون في معنى المهم تكون مبسوط.

– مهو دا في حد ذاته معنى. أبويا. أمي. صحابي. كل اللي حواليّا لما بتسألهم ليه. يقولك معرفش هو كدة. الناس بتعمل كدة.

لم أفهم ما يقصد بشكل كامل لكني شعرت به. أشعر مثله بالرتابة والملل والحياة التي تتكرر دون أمل في التغيير. أشعر أنني مريض في عالم سليم أو سليم في عالم مريض. أشعر بعبثية أفعالنا اليومية. نزلنا السلم ومشينا في شارع 26 يوليو وانحرفنا يمينًا تجاه شارع البرازيل. في أحد شوارعه الجانبية كانت شقة هيثم. قلت لنادر وقد أتعبتني قدمي من المشي.

– هو إحنا ليه مخدناش العربية؟

– أولًا عشان الأتوبيسات وحشتني. ثانيًا عشان وإحنا راجعين مش هينفع أسوق وأنا سكران.

- يا عم كنت أسوق أنا.

- لا م إنت هتسكر معايا. عند هيثم في الزمالك يعني درمغة.

صعدنا السلم وأنا أقدم رجل وأؤخر الأخرى كفتاة في المرحلة الثانوية تذهب مع صاحبها الجامعي إلى شقته للمرة الأولى. بدأ الخوف عندي يطغى على حب التجريب.

طرق نادر على الباب وليس على الجرس. فتح له شاب نحيل ملتحي لحية بنية مهملة يرتدي قميصًا أخضر على لباس داخلي أسود. ابتهج حين رآنا. قال لي:

- إنت هشام. الفوتوجرافر. تعالى يا عم.

واحتضنني فشعرت بشعور غريب. كانت هذه أول مرة يحضنني رجل بلباسه الداخلي.

دخلنا. شقة قديمة راقية لكن غير نظيفة. الأبواب كبيرة والشبابيك الواسعة مغلقة بشيش عملاق والسقف مبالغ في العلو. على الكنب والأرض يجلس شباب وبنات يشبهون «هيثم» الذي فتح لنا الباب. الكل إما يشرب وإما يدخن الحشيش الذي تفوح رائحته العطرية في المكان.

بشكل لا إرادي خفت وأمسكت بذراع نادر الذي يعرفني فلم يمانع. تركنا هيثم وذهب ليحضر «الغرقانة». مشينا معًا بحثًا عن مكان للجلوس. قال لي نادر:

- خليك على راحتك. الناس هنا كلها لطيفة جدًا.

رفعت عيني باحثًا عن أي لطف في أولئك الناس. رأيت فتاة خمرية شعرها مجعد جميل غليظة الشفتان ترتدي قميصًا أبيض تربطه لأعلى لتظهر بطنها على بنطال أسود. نظرت لنا وابتسمت في خبث وقالت:

- إنتو مع بعض؟

فأبعد نادر يدي عنه وقال في براءة:

- إحنا صحاب.

مدت يدها داخل ثلاجة صغيرة كانت تستند عليها وناولت كل منا زجاجة بيرة باردة.

- خدوا واجب الضيافة الأول بعدين نتكلم. شكلكو جديد.

قال نادر:

- هو أول مرة ييجي. أنا باجي على طول.

- بس أنا أول مرة أشوفك.

- عشان مبتبقيش شايفة قدامك. أنا شفتك قبل كدة.

- هي الدنيا هنا كدة. الجديد بيبقى خايف فبيتفرج على كل الناس. القدام اللي زيي مبيركزوش. كله بيروح.

شعرت أن هذا وقت انسحابي فابتعدت أنا وزجاجتي وجلست في أكثر مكان آمن بجوار شاب يدخن سيجارة حشيش ضخمة ويبكي. أردت أن أقول له أنني أشعر نفس الشعور.

بشكل تلقائي ناولني السيجارة فدخنت منها وأنا أسعل كفتاة في الصف الثالث الإعدادي تجرب السجائر للمرة الأولى. تحول بكاء الشاب إلى نهنهة طفل صغير. طبطبت على ظهره وناولته السيجارة والزجاجة ليأخذ نفسًا. لا أعلم ما يمر به لكنني أقدره.

نظرت إلى نادر فوجدت ما كنت أخشاه. كان يتكلم مع تلك الفتاة ويضحكان معًا. عيناها جاحظتان مجنونتان وأسنانها بيضاء بشكل مبالغ فيه. حين تبيّض أسنانك بهذا الشكل فأنت تمتلك من الوقت والمال ما يجعلك تنفقه على هذه التفاهة وهذا أمر خطير. ضحكتها شريرة. نادر لديه قدرة سحرية على جذب الأرواح الشريرة. أنا الروح الطيبة الوحيدة التي يعرفها نادر.

كان يضحك معها كطفل صغير ويشرب من زجاجة البيرة. كنت أتمنى أن أراه قافزًا فوقها يقبلها لكن للأسف يبدو أنه انجذب إلى شخصيتها. كم أكره أن تكون أحكامي المتسرعة صحيحة. لا أدري كم مر من الوقت لكنه كان كافيًا ليتحول بكاء زميلي الشاب إلى عويل ثم إلى عواء ذئب.

أنهيت زجاجتي الثالثة وسيجارتي الثانية مناصفة مع الباكي. بدأت أشعر بدوار خفيف مع استرخاء في جسدي مع ازدياد خوفي من المكان. الحشيش ضاعف ما أشعر به من خوف وقلق. خوف على نادر ومن المكان وقلق على مستقبلي وحياتي.

بدأت أفكر كم أن حياتي حزينة وشهادتي الجامعية ليس لها معنى ومهنتي ليست أكثر من عمل باليومية. مجرد موضة وستنتهي. شعرت برغبة في البكاء مثل صاحبي وكدت أبكي لولا أنه فاجئني وقفز واقفًا ثم شغّل موسيقى لاتينية راقصة وبدأ في الرقص المجنون وحذى الجميع حذوه ومنهم نادر وفتاته.

شعرت برغبة في البكاء وأنا أتخيل أبي حين يشمني وأنا عائد ليلًا تفوح ملابسي برائحة الحشيش وفمي برائحة الكحول. أراه يطردني خارج المنزل بينما أمي منزوية في ركن تبكي وياسمين تنظر إلي في خيبة أمل.

أراني أسير وحيدًا في الشوارع. أشعر بسعادة وقتية ثم أشعر بثقل في قلبي وأراني أعيش سكيرًا هائمًا شحاذًا في الشوارع جالسًا على الرصيف تحيط بي أرجل الناس جيئة وذهابًا. ثم أرفع عيني فأرى الأرجل الراقصة. أرفع عيني أكثر فأرى الفتاة تستولي على نادر وتحضنه وتمتصّه بروحها شريرة. أشعر بالفراغ والوحدة يتضاعفان داخلي. لست المريض الوحيد داخل هذا المكان يا نادر.

أجفلت حين سمعت صوت موسيقى عالية تأتي من أحد الشقق في شارع البرازيل وبحركة تلقائية أمسكت ذراع رضوى التي توقفت وسألتني:

- في حاجة؟

- لأ. الشارع اللي فات كان أهدى يللا نرجع له.

وننحرف بعيدًا عن الشارع. يرن هاتفي. أخرجته من جيبي لأرى المتصل دون نية في الرد. كان آدم فقررت الرد.

- هتفضل نايم لحد امتى؟ لحد ما الطيارة تفوتني؟

- يا عم أنا ظابط المنبه على 8 المغرب متخافش.

- حد يظبط المنبه على 8 المغرب؟ أجيلك امتى؟

- براحتك. أنا لسة رايح مشوار كدة الأول.

- رايح فين؟

- إمبابة.

- يا جزمة. هتسكر ليلة سفري؟

- هتفهم لما أشوفك. بقولك إيه؟ مشفتش المفك الصليبة؟ أبوك قالب الدنيا عليه.

باقي 10 ساعات و 26 دقيقة

لدي مشاعر متناقضة تجاه يوم الجمعة. على الرغم من كونه يوم الإجازة حيث لا توجد جامعة ولا استيقاظ مبكر ولا أشكال ضالة تنغّص عليّ حياتي.

لكن على الجانب الآخر أضطر لقضاء جزء كبير من يومي مع العائلة. بداية من نداءات أمي المزعجة لأصحو للصلاة. مرورًا بإزعاج الخطيب الذي يتكلم بحماس وحرارة عن أمور حدثت قبل 2000 سنة معظمها لم يحدث بالأساس. وصولًا إلى الجزء الأسوأ. الجلوس مع العائلة. يجمعنا أبي حوله في تقليد عائلي. يجلس على الكنبة وبجواره أمي ونتفرق أنا وإخوتي في الصالة.

بعد دقائق من الصمت المحرج يتكلم أبي في موضوع هذه الجمعة وهو موضوع شائك. يقول أبي:

– النهاردا جي لنا ضيوف يتعرفوا علينا. أستاذ سامي وحرمه مدام نادية وابنهم سليم. عايزين نكون كلنا موجودين في استقبالهم. إنتو ولاد زي الفل وتشرفوا أي حد. بس نخلي بالنا.

أثناء كلام أبي لم أحوّل عيني عن ياسمينة. كيف تشعر. فيم تفكر. أراها تنظر لأبي في إحراج. تقول أمي:

– إن شاء المرة دي خير. خالتكو صفاء بتقول عليهم ناس كويسين أوي. عايزين نفرح بقى.

ما زال تركيزي مع ياسمين. بعد جملة أمي قامت ياسمين غاضبة وتركتنا. مشيت خلفها متجاهلًا صوت أبي الذي يقول:

– أنا ما بصدق نتلم مع بعض يا ولاد. رايحين فين؟ تعالو نتكلم.

دخلت وأغلقت بابها. وقفت لحظات أفكر هل أدخل أم لا. ثم قلت لنفسي أنها لن تسمح لي بالدخول لو طرقت الباب فدخلت مباشرة. وجدتها واقفة تنظر لنفسها في مرآة الدولاب في حزن وتحدٍ. رأتني خلفها في المرآة فقالت:

– عارف إيه أحلى صورة إنت صوّرتها؟

– صورتك إنتي. في المراية دي.

– لا. إنت مرة طلعت رحلة الأقصر وأسوان. صوّرت صورة في النوبة لمركب شراعي عليها واحدة ست جميلة بجلابية نوبي ومعاها بنتين صغيرين.

حوّلت نظرها من المرآة تجاهي فرأيت عيناها دامعتان وقالت لي:

– الست دي المفروض تكون أنا.

اقتربت منها واحتضنتها. أكملت:

– كل يوم وأنا نازلة الشغل بفكر أنقل تكليفي على أسوان وأروح أعيش هناك لوحدي. 2000 جنيه يعيشوني لوحدي هناك كويس صح؟

– إحنا منعرفش نعيش بعيد عنك.

– أنا بتطرد م البيت يا هشام. أمك شغالة بإيديها وسنانها عشان تجيبلي عريس. مفيش نصيب خلاص هنعمل إيه.

– هما عايزينك مبسوطة بس. فكرتهم عن سعادتك إنك تكوني متجوزة.

– هما عندهم حق برضو. بعد أسبوع هتم 26 سنة. مبقتش صغيرة. بقيت أقرب لل30 مني لل20. هي الحياة كدة. م لازم هتجوز يعني. وأجيب عيال يبقو صحابي بدل صحابي الأندال اللي بيتجوّزوا واحدة ورا التانية.

لم أعرف ما أقول فضممتها لصدري بقوة أكبر. كم أتمنى لو أستطيع أن أقول للناس كل ما يدور برأسي. أن يعرفوا كم أحبهم. كم أظن أنهم يستحقون أفضل شيء في العالم.

كم أتمنى الآن أن أخبر ياسمينة أنها تستحق قصة حب مثل ما تراه في الأفلام. وتستحق بطلًا مثل أبطال الروايات. وأنني لا أفهم لماذا لم تحصل على كل هذا. ولماذا حظها تعس دائمًا. لسببٍ ما يعجز

لساني عن الكلام فأضمها بقوة أكبر حتى خشيت أن أكسرها. خرج كلامي عقلانيًا كريهًا.

- ربنا مرتب كل حاجة. ممكن تلاقي سعادتك وحبك في الصالونات. شوفي إنتي هتخسري إيه يعني. يمكن يكون العريس دا المراكبي اللي هياخدك على مركبه الشراعية للنوبة.

ضربتني بكوعها في حضني ضاحكة وقالت:

- ولا. تريقة مش عايزة. متستغل لحظات ضعفي وتضحك على ثغراتي.

- أضحك على ثغراتك إيه بس. دا إنتي ثغراتي كلها. بعدين من إمتى وإنتي دراما كدة. عريس هييجي وهنتريق ونضحك شوية واقلب هات اللي بعده.

- مهو لحد امتى.

قلت ضاحكًا:

- لحد ما تهربي على أسوان.

ليلتها أتى سليم وسار كل شيء بشكل جيد. ثم التقينا به مرتين بعدها ثم قرأنا الفاتحة. ثم أصبح زوجها.

سألتني رضوى:

– مجوعتش؟

– شوية. بس دي الزمالك. الأكل زي الزفت.

– أنا أعرف مكان. هتاكل منه أحلى بيتزا مشكّل جبن في حياتك.

– اتقالّي الكلام دا على مليون مكان هنا وكلهم زفت. بس أنا جعان ف يللا.

مشينا معًا. سألتني رضوى:

– في سؤال عايزة أسألهولك من أول اليوم. إنت ليه نزلت معايا بدل م تقعد تودع أهلك.

– الوحيدة اللي محتاج أودعها من أهلي مسافرة أساسًا.

– ياسمينة؟

– أيوا.

– وريهالي كدة.

– مكسّل أدوّر في الgallery .

– هاتها فيسبوك.

فتحت فيسبوك ياسمينة. تضع صورتها مع فارس وهما يضحكان. نقلّب فنرى صورتها مع سليم في مكان يبدو كمطعم. هي تضحك وتنظر له وهو ينظر للكاميرا في جدية. تقول رضوى:

- جوزها شكله شرير أوي.

نقلّب في حسابها. كوميكس عن الغربة والفرق بين مصر والسعودية. كومكس عن صخب الأطفال. دعاء «اللهم احفظ لي زوجي» أقرأه فأجد نفسي تلقائيًا أقول «يا رب لأ». أشعر بالحنين يخنقني. أقول:

- كفاية كدة أنا جُعت.

تصعد رضوى في الحساب بسرعة وتخرج. يلفت انتباهي شيء فأفتح حسابها من جديد. الcover photo . أفتحها وأنظر فيها ثم أبتسم.

كانت صورة في النوبة لمركب شراعي تجلس عليه امرأة نوبية جميلة ومعها فتاتين صغيرتين.

باقي 9 ساعات و 55 دقيقة

تعبنا من المشي فاستندت إلى سيارة فولكس حمراء وقلت لها:

– بحب أسئلتك. محدش بيعرف يخلليني أتكلم زيّك.

– إنت اللي مبتتكلمش عن نفسك. لازم أشد منك الكلام كدة.

– عيب تقولي كدة. أنا كتاب مفتوح.

– يا راجل! طب قولي. إنت مسافر ليه؟

قلت الإجابة التي تدربت عليها لشهور:

– زهقت م الشغل هنا. عربيات وأكل وموديلز وسخافات. عايز أصوّر حاجة بجد. عايز أتعلم الحاجة اللي بحبها بجد. أنا كنت بصوّر عشان أبعد عن الروتين لكن دلوقتي التصوير بقى روتين وأنا مش حابب دا. محتاج تحدي جديد.

صنعت صوتًا بحنجرتها مثل الصوت الذي يظهر في برامج المسابقات حين يجيب أحدهم إجابة خاطئة ثم قالت:

– بلاستيك. إجابة بلاستيك. خش عليّا بالإجابة الصح.

– هي دي الصح.

صمتت لحظات وهي تعلم بكذبي وقالت:

- قولي حاجة عنك محدش يعرفها خالص.

فكرت لحظات ثم طرأ ذلك الأمر على بالي. مستحيل أن أقوله. بل سأحكيه. لن أراها ثانية فما الضرر.

- أوكي. بس نمنع الضحك تمامًا. أي ضحك أو تريقة هعتبره تنمر وهعيط.

- هحاول.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- كنت صغير. كنت بساعد صاحبي اللي بيمر بأزمة. وبصراحة كان نفسي في الموضوع مضحكش عليكي. وأنا في تالتة جامعة. كنت عضو في فرقة موسيقية.

- دي حاجة جميلة مش محرجة. كنتو بتلعبو إيه؟ روك؟ الفرق كلها بتلعب روك.

- لأ.

- امممم. جاز؟

- يا ريت.

تفكر قليلاً ثم تفشل في معرفة نوع الموسيقى.

- يا ريت؟ أمال إيه؟

- راب.

تضحك رضوى في ذهول ثم تضع يدها على وجهها لتمنع الضحك. تقول وسط ضحكاتها.

- راب! وإنت كان دورك إيه؟ إنت خجول أكيد كنت بيز جيتار أو درامز.

أهز رأسي نفيًا وأقول:

- يا ريت .

- أمال إيه؟ ثانية واحدة. كنت المغني الرئيسي؟ كنت الرابر!

هززت رأسي موافقًا وهي تضحك بشكل متواصل لدرجة أنها شخرت حين حاولت أن تأخذ نفسًا. بينما أشاهدها وأفكر أن هذه هي السعادة. تسألني:

- بس إزاي الموضوع سر. أكيد صحابك ع الأقل كانوا عارفين الموضوع دا.

- عشان كنا... لا لا بلاش إنتي ضحكتي بما فيه الكفاية النهاردا.

- والنبي قولي.

وتقبلني من خدي كي أقول فأتكلم على الفور:

– كنا لابسين أقنعة وإحنا ع المسرح. عشان محدش يعرفنا.

ضحكت أكثر لدرجة لفتت نظر المارة حولنا. قلت مفسرًا:

– نادر كان بيمر بأزمة وقتها. وابتدى يتعلم التوزيع والمزيكا. كان بيحب الراب وكان نفسه يعمل حاجة زي برة. كنا في أوضته وسمّعني beat هو عامله فبدأت أستظرف وأغني عليه فالموضوع عجبه وأقنعني نعمل فرقة.

وعشان أبوه ميعرفش فكرنا في موضوع الأقنعة. أنا كنت بلبس ماسك مخيف وهو كان ورايا بيلبس ماسك ميكي.

قالت وهي تدمع من الضحك:

– دا أكتر شيء عشوائي سمعته في حياتي. أكيد عندك فيديوهات.

– للأسف لا. عملنا حفلتين في الساقية أيام ما كان أي حد بيخش الساقية. بعدها فشلنا فشل ذريع. مكناش معرّفين صحابنا واستنينا نسّمع كفرقة الأول وننجح بعدين نقولهم المفاجأة بقى.

– طب م تسمّعنا حاجة كدة.

قلت في حزن مصطنع:

– للأسف مش فاكر حاجة.

قلبت شفتيها متظاهرة بالحزن ثم انفجرت ضاحكة من جديد وأنا أفكر أن كل هذا سينتهي بعد ساعات. لا سعادة تأتي دون غصة تفسد كل شيء. أسأل نفسي متى آخر مرة كنت بهذه السعادة؟

ربما كانت خطوبة نادر. داليا وليست بسمة. بسمة كانت روحًا شريرة هبطت علينا. داليا كانت ملاكًا رقيقًا. كانت النسخة الأنثوية مني. وماذا يريد الصديق لصديقه أفضل من الارتباط بالنسخة الأنثوية منه؟ كانت خجولة. طيبة. ذكية. خفيفة الظل.

كانت تشبهني في الطباع فقط وليس في الشكل لحسن حظه. منظرهما معًا هو السعادة بعينها. كانا يتكلمان في نفس الوقت. حين تحكي لهما شيء كل واحد على حدا يقاطعانك في نفس المكان من الحكاية ويعلقان نفس التعليق. حين تراها تنظر له تعلم أنه ينظر لها في نفس اللحظة. حين يبتسم تعرف أنها تبتسم بدورها.

كنا في واحدة من تلك الفيلل التي يؤجرها الناس لإقامة الأعراس والخطوبات. وكنا صباحًا وكان الموجودون معظمهم من الشباب وقلة من الأقارب وأصدقاء والدا العروسين الذين يشعّون بالأناقة والنظافة. رأيت داليا واقفة تستمع لهمسات صاحباتها وترد عليها بضحكة أو تكشيرة فالتقطت لها عدة صور تلقائية. أتى نادر من خلفي وقال:

- شمّني كدة.

نادر له طلبات غريبة أحيانًا. شممته. رائحته رائعة كالعادة. قال لي:

- تمام؟

- إنت شارب سجاير وخايف تتقفش؟

قال بصوت خفيض:

- أصلي كنت مع حلا الصبح. فخايف ريحتها تكون لازقة فيّا مع إني مغرّق نفسي برفان.

قلت في غضب:

- حلا! دا إنت بتخطب يا نادر!

- هششششش! هتفضحني! كلمتني الصبح قالتلي هتوحشني. مرة أخيرة وخلصنا. وبصراحة مقدرتش أقول لأ.

- تقدر يا نادر تقول لأ. في إنسانة بتحبك وإنت بتموت فيها. متلعبش بالنار.

- مقدرتش! معرفتش أقول لأ. وخلاص هي آخر مرة.

كانت حلا هي غصة هذه السعادة. لم أقل لكم أن اسم فتاة شقة الزمالك هو «حلا». عرفته فيما بعد في طريق العودة حيث ظل يحكي عنها ثلاثة أيام ولم أصدق أو أعر انتباهًا لما يقول. عرفت أن لديها العديد من المشاكل بداية من معاملة أبيها لها نهاية بمعاملتها لنفسها وللناس.

ظل نادر مخلصًا لها فترة ظنًا منه أنه يمكن إصلاحها لكنني بعد نقاشات كثيرة أبعدته عنها. لكن في نوبات السعادة لم يكن في مقدوري إبعاده عنها. كانت شيطانًا يأخذه بعيدًا عني في رحلات وحدهم تارة إلى سقارة ثم إلى السخنة ثم إلى الساحل صيفًا.

كانت حلا تكبرنا بخمسة أعوام وكانت تفهمنا وتعرف مرض نادر فتختار اللحظات المناسبة لوضع خططها. كان نادر يبحث عن السعادة بينما كل ما أرادته حلا كان الرفقة البشرية التي لا تجدها بسبب عقدها وتقلباتها.

– حلا مجنونة. ممكن تروح لداليا تقولها على كل حاجة. ساعتها هتعمل إيه؟

– معندهاش دليل عليّا. مبكلمهاش ع الموبايل خالص لما بعوزها بشوفها.

– حتى لو. مجرد إنها تتكلم دا كفيل يهز علاقتك بداليا.

– ما خلاص يا هشام قلتلك دا آخر يوم. مش هشوفها تاني. يمكنكم التخمين بالطبع أنها لم تكن آخر مرة.

باقي 9 ساعات و خمس دقائق

بمعدة ممتلئة ونفس راضية وعقل خاوٍ تسحب منه المعدة الدم أمشي ممسكًا بيد رضوى كالعشاق. لا أريد تذكّر شيء أو التفكير في شيء أو خوض نقاش من نقاشاتها المرحة المرهقة. أريد الخوض في هذه اللحظة الهانئة للأبد. تقول رضوى بصوت هادئ في الخلفية:

– بحب الزمالك أوي. كل حجر هنا له حكاية. كل حاجة معمولة بفن. ممكن أعيش حياتي هنا بدوّر على حكاية كل حاجة.

– دي جنة الأجانب زمان. عملوها عشان تبقى شبه بلادهم وتبعدهم عن مصر. وبصراحة عندهم حق.

تحول صوتها إلى الجدية وهي تقول:

– قصدك إيه؟

قلت بتلقائية:

– قصدي إن الحياة هنا خرا.

– تمام.

أبعدت يدها عن يدي ومشينا لحظات صامتة. سألت:

– أنا قلت حاجة غلط؟

نظرت إليّ ثم أبعدت عينيها عني وقالت:

– لا. بس مش لازم تعمل فيها الجامد اللي سايبنا عايمين في الخرا وماشي.

– أنا مقصدش حاجة. أنا بتكلم عادي والله. بهزار كمان. يعني حياتي خرا هاها وكدة.

– على فكرة إحنا عايشين هنا كويس. أنا ممكن أسافر بس أنا بحب هنا. بحب الحكايات هنا والناس هنا. مش كل الناس وحشة ومش كل حاجة برة حلوة. هناك برد ووحدة وقسوة.

– وهنا حر ووحدة وقسوة.

– دا بالنسبة لك. إنت اللي مش قادر تتعايش هنا.

– ماشي يا ستي المشكلة فيّا. مختلفناش. كل حاجة زي الفل وأنا وحش. كويس كدة؟

– اه. كويس.

ومشت بعيدًا وهي تشيح بوجهها عني. مشيت وراءها وأنا أحاول ضمّها وهي تبتعد. مشيت بسرعة وحاصرتها من الأمام فوضعت رأسها في الأرض. رفعت رأسها فكانت تبكي.

لا أعرف ما أفعل. كنت أتمنى أن تكون هذه ثلاثينيات القرن الماضي لأنني سأكون مرتديًا بدلة في جيبها منديل قماشي أناوله لها وأربت عليها فينتهي دوري. أما في هذا العصر اللعين عليك باتباع خطوات معقدة مثل أن تعرف ما يضايقها حقًا وتناقشه فيه وربما تعتذر عنه أيضًا. قررت البدء بالاعتذار.

- أنا آسف.

- إنت عارف إنت عملت إيه عشان تعتذر عنه؟ إنت أهبل؟

- معرفش بس حسيتني غلطان.

- إنت مش غلطان. إنت صح. العيشة هنا زفت.

- طب إنتي عشان كدة بتعيّطي؟

- لأ. بعيّط عشان الحياة هتبقى زفت أكتر من غيرك.

تأثرت وكدت أبكي بدوري. الشارع لن يحتمل اثنان يبكيان. حضنتها فأبعدتني عنها.

- إحنا في الشارع.

لم أعرف ما أفعل. ثم نظرت حولي فتذكرت شيئًا مهمًا. أخذتها من يدها ومشينا بضعة خطوات للأمام وهي تجفف دموعها وتفرك عينيها. ثم توقفت أمام جاليري «أرتيتا» وقلت لها:

– عارفة المكان دا؟

– خلّيني أخمّن. دا أكتر مكان بتكرهه في مصر؟

ضحكت وقلت:

– لا. دا مكان أول معرض ليّا.

اتسعت عيناها من جديد. عرفت أنني أوقفت سيل الدموع.

– خسارة. المكان قفل؟

– مدام شيرين صاحبة المكان. هانم زي هوانم زمان كدة. مسافرة لأحفادها في لندن. بتقفل في الوقت دا من السنة.

– أكيد كان معرض ساحر. يا ريتني كنت موجودة.

لم أرد. نظرت إليّ متسائلة فقلت:

– مش عايز أسوّدها في وشك. خلّينا نقول ساحر.

– أنا عايزة الصراحة حتى لو مؤلمة. قول.

– مش مؤلمة. بس المعارض دي شيء ملوش أي لازمة. صحابك وأهلك بييجو يهنّوكي. يعملولك هيصة. كام صحفي غلبان على كام مصوّر بيغطّوا الخبر. بينزلو على المواقع ومحدش بيقرا الخبر. كأنك طبختي طبخة وإنتي اللي أكلتيها وإنتي اللي بتقولي لنفسك تسلم إيدك. مفيش حد مهم فعلًا بيكون موجود في المعارض دي ولو ف حد بيجاملك بكلمتين ويمشي.

أنا مش متشائم. وقتها كنت ببقى مبسوط جدًا بنفسي وبالناس. وكانت نظرات الاحتقار بتاعت بابا وعدم الاهتمام بتاع ماما بتحفّزني أكتر ما بتحبطني. لكن لما ببص لورا دلوقتي. بلاقي إن كل دا مكنش له أي معنى. وإني مش فنان زي ماانا وصحابي فاكرين. أنا مصوّر موديلز بالنهار. ومصوّر أفراح بالليل.

– وإيه اللي حصل خلاك تعرف الحقيقة دي.

– الوقت. بالوقت بتلاقي نفسك في مكانك. كل حاجة زي ما هي. كل يوم بتتكرر.

– فاهمة. بس إيه الحدث اللي خلاك تدرك كل دا؟

– مفيش حدث معيّن. حقيقي.

عزيزي نادر..

حاولت كثيرًا البحث عن تعريف معين لشعوري وقت معرفتي بالخبر. لم يكن حزنًا ولا صدمة ولا مفاجأة. بل كان غضبًا. مزيج غريب من الغضب والخذلان. شعور بأنني تُركت وحيدًا في ميدان المعركة دون صديق ودون عدو ودون أحد أحكي له حيرتي. أنا غاضب منك. وغضبي يغطي على شوقي إليك وعلى حزني وعلى صدمتي. وأنا تائه الآن. أفعل أول ما أفكر فيه. وأرجو من الله ألا يؤدي بي هذا إلى قرار أندم عليه حياتي كلها.

حتى نلتقي

صديقك الوحيد هشام

رسالة ورقية كتبتها في جواب وتركتها لنادر

باقي 8 ساعات و 22 دقيقة

في عملي كمصوّر أفراح من النادر أن أرى سعادة حقيقية. دائمًا هي سعادة زائفة من أجل الصور. العروس تعرف كيف تقف. كيف تضحك. متى تنظر للكاميرا ومتى تنظر للعريس. أما العريس المسكين فضحكته مثل ضحكة كل الرجال للكاميرا. انقباض عضلي متوتر لعضلات الوجه لإظهار الأسنان.

عريس وعروس ذلك اليوم كانا قصة حب جميلة. رأيت فيهما سعادة حقيقية. ينظران لبعض طوال الفرح وفي جلسة التصوير قبلها. لا يتوقفان عن الضحك والمزاح. تضحكها دعاباته السمجة وتسحره ضحكتها الصاخبة.

لم يكن في أي منهما جمالًا مميزًا لكن كانا يضيئان بجوار بعضهما البعض. زواج سعيد لا يبذل أي مجهود ليبدو سعيدًا. التقطت العديد من الصور الجيدة.

العريس والعروس وأصحابهما يرقصان في زحام شديد يصعب التصوير. ابتعدت عن الحدث وأخذت كاميرتي واستندت إلى الدي جي. بشكل ما اعتدت على صوتها الصاخب لدرجة أنني في أحد

الأيام نمت على السماعات من شدة الإرهاق. فتحت هاتفي وقلّبت فيه. وجدت رسالة من ياسمين.

– هات معاك شيتوس وبيبسي.

– حاضر.

بعدها بدقائق أرسلت لي:

– وآيس كريم.

اه. آيس كريم يعني أن هناك مشكلة. كان الفرح يوشك على نهايته فالتقطت عدة صورة تأدية واجب ومشيت. جلبت لياسمين ما طلبت وعدت إلى البيت.

كانت الساعة الواحدة ليلًا. أبي وأمي ناما منذ قرون. آدم لن يعود قبل ساعتين من «مذاكرته» مع أصحابه. ياسمينة جالسة ببيجاما وردية قطيفة عليها أرانب ودببة وقد عقصت شعرها لأعلى «كحكة». على وجهها علامات التركيز وهي تشاهد فيلم رعب أمريكي تتطاير منه الأشلاء والأذرع والسيقان في وجه الكاميرا. أخذت مني ياسمينة الشيتوس وفتحته وأخذت تأكل بسرعة كما تفعل عادة وهي حزينة.

– أحط الآيس كريم في الفريزر؟

– سيبه. بحبه سايح شوية.

فتحت زجاجة المياة الغازية الكبيرة وشربت من فمها جرعة كبيرة وتجشأت.

- إيه اللي رجعك بدري؟

- عشان أجيبلك آيس كريم.

- طول عمرك بكّاش يا ولا. اقعد نشوف الفيلم دا هيخلص على إيه. الزومبيز سيطرواع العالم خلاص ومش باقي غير البت دي. بس هي سمّاوية. يا رب ياكلوها هي كمان.

- إنتي بتشجعي الزومبيز؟

- خللي القيامة تقوم. خللينا نخلص.

جلست بجوارها ومددت يدي آكل من الشيتوس فلمحت ضيقًا في عينيها . لا تحب أن يأكل أحد من طبقها. لو أردت شيئًا اجلبه لنفسك. هذه هي القاعدة. رأيتها تشهق في رعب فنظرت وجدت أحد الزومبيز يمسك بالبطلة الحسناء ويأكل ذراعها قبل أن تضربه على رأسه وتجري. تسألني:

- لو الوحش بيجري وراك وخلاص هياكلك هياكلك. تحب ياكل إيد ولا رجل؟

كيف ستتزوج هذه الخرقاء؟ كيف ستكون أمًا وتربي لنا جيلًا جديدًا.

- رجلي الشمال. ضعيفة كدة وملهاش لازمة.

- وتعيش أعرج؟!

- أحلى عيشة. هستمتع بنظرات الشفقة بتاعت الناس. البنات الحلوة هتتلم عليّا عشان تساعدني. هشتم الناس كلها ومحدش هيقدر يرد عشان ميجرحش مشاعري. والأهم هجيب عربية ذوي احتياجات خاصة معفية م الجمارك. لكن معرفش أعيش بإيد واحدة. هصوّر إزاي؟ هحضن إزاي؟

- لا وإنت مقطّع الدنيا أحضان. أنا أعيش بإيد واحدة أحسن. كفاية إيد واحدة ألطشلك بيها.

- بس لو إيدك الشمال اتّاكلت. هتنقلي الدبلة م اليمين لفين؟

وجمت ياسمينة. أكلت 6 أصابع دفعة واحدة. قالت:

- حددنا ميعاد الفرح 8\ 8 الجاي.

- مبروك. مش باين على وشك.

صمتت لحظات ثم قالت:

- هو إحنا لما بنكون مبسوطين. أثناء لحظات السعادة. بنعرف إننا مبسوطين؟ ولا مبنعرفش غير لما السعادة بتروح؟

- إيه حكاية الأسئلة الوجودية النهاردا. معرفش. عمري ما كنت مبسوط قبل كدة. إنتي حاسة بإيه؟

– معرفش. حاسة بفراغ. قفلت اللعبة. هبقى مدام سليم. وشوية وهبقى أم أحمد. ياسمين راحت. هتبقى ريحتي بيبّي أطفال وكلامي كله عن الجواز والعيال. واللهم احفظ زوجي وأولادي.

– مش دا اللي كنتي عايزاه؟

– دا اللي المفروض أعوزه.

– طب إنتي عايزة ايه؟

– مفيش. الشغل قرف وهم برضو. هي الحياة نكد كدة ولا أنا مع الشخص الغلط ؟ بص كل دي وساوس. أنا خايفة بس عشان هتجوّز. طبيعي. كل دا طبيعي.

شعرت بالعجز. دائمًا حين أطلب النصيحة من أحد أجدها جاهزة شافية. أشعر بالتحسن حين أتكلم وأواجه متاعبي. أما حين يقع شخص أحبه في مشكلة ويطلب نصيحتي أشعر بعجز تام وأسمع مشكلته كاملة ثم أصمت تمامًا. يظنون هذا عمقًا وهو بلاهة لا أكثر.

شهقت ياسمينة مرة أخرى فنظرت للتليفزيون لأجد الوحش يأكل رأس البطلة ويمضغها أمامنا فتسقط العين من فمه. تسألني:

– طب تعيش من غير مخ ولا من غير قلب؟

قبل أن أرد رن هاتفي. كان آخر شخص يمكن أن أتوقعه. «حلا» صديقة نادر اللعينة. رددت مستغربًا.

– هشام. تعرف تيجي دلوقتي؟

– في إيه؟

– في موقف بس مش عارفة أتصرف فيه. عارف شقة الزمالك؟ إحنا هناك تعالى.

– إنتو مين؟ إيه الموضوع؟

– مش عارفة أوصف لك. نادر مش كويس. هو كويس بس مش كويس. صحيًا كويس بس نفسيًا مش مظبوط. إنت الوحيد اللي تقدر تساعده. ممكن تيجي وإنت تفهم؟

– حاضر.

أغلقت الخط. نظرت لي ياسمين مستفهمة فقلت:

– وائل نسي ال memory card بتاعه معايا وعليه صور الفرح. لازم أودّيهوله.

– م ييجي هو ياخده.

– معهوش عربية. انا هاخد عربية أبوكي وأرجّعها قبل ما يصحى.

– إنت بتكدب.

– اه.

– طب خلي بالك من نفسك.

أخذت مفتاح السيارة ونزلت نحو عجز جديد. من ذعري لم أعرف كيف مر عليّ الطريق من جسر السويس إلى الزمالك. وصلت. ركنت السيارة ونزلت. لسعني هواء ليل مارس البارد في طريقي من السيارة لمدخل العمارة. فكرت أن حياتي تتداعى. ياسمينة تتزوج. نادر لا أعرف ما دهاه مع تلك الساقطة. هل صارت حامل منه؟ هل تناول جرعة زائدة؟

طرقت الباب ففتحت لي حلا التي كانت ترتدي قميصًا طويلاً دون بنطال وشعرها الأسود منسدل على ظهرها. كيف لا تشعر بالبرد؟ ربما هي الخمر.

– ماله؟

– بقاله 3 ساعات بيعيّط.

– إيه؟ ليه؟ إنتي عملتيله إيه؟

– معملتش حاجة. العادي بتاعنا. بعد ما خلصنا بشوية لقيته قاعد في corner وملموم على نفسه وبيعيّط.

وفتحت لي باب إحدى الغرف فوجدته كما تصف. جالس على الأرض متقوقع على نفسه وهو يبكي ويهتز. قلبي تمزّق حين رأيته لكن شعرت بالطمأنينة لأنه لم يؤذ نفسه.

– 3 ساعات. حاولت معاه كل حاجة. مش مبطل عياط زي العيل الصغير.

– طيب سيبينا لوحدنا شوية.

قلتها بلهجة الواثق الذي يعرف ما يفعله بينما قلبي يدق بسرعة خوفًا وعجزًا. نزلت بجواره على الأرض فبكى في حضني. ظل يبكي حتى ابتل قميصي. قلت:

– مفيش حاجة وحشة هتحصل. أنا جنبك هنا. كل العياط والزعل دا هينتهي.

ترك حضني وعاد يبكي وحيدًا. بكاء صامت في البداية تقطعه نهنهات بسيطة. لو كان مكاني وكنت مكانه لجعلني أضحك ملء شدقي. ولعرف ما بي وأذهبه عني في لحظتها.

شعرت بقلة الحيلة والعجز تجاهه وتجاه ياسمينة وتجاه نفسي. هل سنظل في هذا الحزن للأبد؟ هل سأظل مصور أفراح للأبد؟ سأكبر ويصير لدي ستوديو تصوير صور 4x6؟ هل سينتهي بي المطاف وحيدًا؟

وجدت نفسي أبكي. كانت بداخلي دموع محبوسة منذ سنوات تنتظر الخروج ولا يوجد وقت أفضل من الآن. كنت قد نسيت البكاء. أسلت دمعتين في البداية ثم جفت دموعي فصرت أستحثها بأن أجهش بصرخة صغيرة. لا أعلم ما يمر به نادر لكنني أمر بما هو أسوأ.

بعد دقيقة من بكائنا معًا نظرت لنادر فوجدته يراقبني ومن بين دموعه رأيت شبح ابتسامة. ثم تحوّلت الابتسامة إلى ضحكة ثم إلى

ضحك هستيري متواصل وهو يشير إليّ. يضحك حتى سالت دموعه من الضحك. قال وهو يلتقط انفاسه بصعوبة بين الضحكات:

- شكلك مضحك فشخ وإنت بتعيّط.

ثم قلّدني مجهشًا مثلي وانهار من الضحك. كان هذا مهينًا إلى حد ما لكن ضحكة نادر معدية دائمًا. ضحكت بدوري.

- وشك وش مدرس أحياء. flat كدة ولا بيضحك ولا بيعيّط. العياط عليه مسخرة. يعني تخيّل الغول بتاع الكيميا بيعيّط. ضحك فشخ.

وواصلنا الضحك. بعدما هدأنا سألته:

- موقّف الدوا بتاعك من إمتى؟

- حوالي شهرين.

- ليه؟

- كنت حاسس إني كويس. قلت أجرب الحياة من غيرها. والدنيا كانت ماشية كويس وفجأة كل حاجة باظت.

- طب إنت بتكدب عليّا ليه دلوقتي؟ عمر كدبك عليّا دا نفعك بحاجة؟ يعني إنت عايز تقنعني إنك وقّفت دوا ورحت تترمي في حضن الشمطاء دي وتبوّظ كل حاجة لمجرد إنك تجرب تعيش من غير الدوا؟

نظر لي في حزن وقال:

– هعيّط تاني.

– وانا هعيّط على عياطك وتضحك عليّا ونعيد اليوم من أوله. أنا مش ورايا حاجة.

أُسقط في يده. بلع ريقه في توتر. قال متجهّمًا:

– إنت عارف إن الفلوس بالنسبة لي ملهاش قيمة صح؟ ولا أعرف أبويا عنده إيه ولا معانا كام. اللي بيدّوهولي باخده وخلاص. فاللي هقوله دا ملوش أي علاقة بالفلوس. عايزك تكون فاهم دا كويس.

– طبعًا.

تسارعت أنفاسه كطفل صغير يحكي لأمه عن مضايقات زملائه في الحضانة. قال:

– إحنا عندنا 3 صيدليات. واحدة اسم ماما وواحدة باسم نهى وواحدة باسمي. بابا هو اللي بيدير كل حاجة. من شهرين كدة. بابا جابنا وخلانا نبيع له الصيدليات. قال إنه داخل مشروع جديد ولا زفت على دماغه معرفش. دا السبب اللي قاله.

– والسبب الحقيقي؟

– إني bipolar .

صعد الدم إلى رأسي. ليس كل ما يحدث حولك يا نادر مرتبط بمرضك.

– ليه بتفكر كدة؟ متظلمهمش. لازم تتأكد قبل ما دماغك توسوسلك.

نظر لي في انكسار وقال:

– عرفت بالصدفة بعدها بأسبوع إن بابا رجّع لماما ونهى الصيدليات وأنا لأ. خد الصيدلية من ابنه المجنون عشان ميضيّعهاش في نوبة جنان. تفكير عملي سليم.

لم أعرف ما أقول. شعرت بغضب شديد ووددت لو أن والده أمامه لأكسر رأسه. قلت:

– إنت عارف إنك خسارة في أبوك صح؟ وإنه ميستاهلش ابن زيّك.

– أنا مش زعلان من أبويا يا هشام. دي حاجة متوقعة منه.

ونظر لي نظرة ذات معنى. فهمت. لم يكسره فقدان ماله أو قسوة أبيه. بل كسره موافقة أمه على كل ذلك.

ياسمينة..

تعرفين نواياي قبل أن أصرّح بها. تعرفينها قبل أن أفكر فيها. أرسل لك لأقول أن ذكاءك لن يخونك. الأمر كما تظنين. هي الهجرة بلا عودة. سأزورك دائمًا. أتمنى ألا تغيّر فيّ الغربة الكثير. أتمنى أن أظل أنا. وحتى لو تغيّرت أخوّتنا لن تتغير أبدًا. فكما تقول أمي حين يتألم المرء أو يتذكر شيئًا مهمًا يقول «أخ». سأحرص دائمًا حين أتألم أن أقول «أخ» بدلًا من «أي».

رسالة وداع لياسمينة تبدو لائقة.

لا أعلم إن كنت سأرسلها أم لا

باقي 7 ساعات و 45 دقيقة

كانت الفطائر سيئة مثل كل الطعام في الزمالك. لكني وضعت على وجهي ملامح التلذذ مع بعض الأصوات مثل «مممم» و «يا سلاام» مع إعطائها بعض القطع التي أدّعي أنها رائعة لدرجة أنها يجب أن تأكلها وأنا في الواقع أتخلص منها لأنها لا تعجبني. أنهينا الأكل وواصلنا المشي. سألتني:

- عجبك الأكل؟

- جدًا. الأكل واصل لحد هنا.

وأشرت إلى أسفل رقبتي. ضحكت وقالت:

- إنت كرهت الأكل.

- لا عجبني جدًا.

- كرهته أنا عارفة. ما دام بدأت تتكلم زي كبار السن كدة تبقى كرهته.

- بصراحة معرفش إيه الحلو في الأكل دا. الراجل بيحط كمية جبنة محدش يستحملها.

– خسارة. كان نفسي تكون آخر وجبة ليك في مصر حلوة.

– مهي دي مش آخر وجبة في مصر. ماما بقى عاملالي حاجات قبل ماأسافر. شفت محشي وشفت بط وحوارات كدة بتتجهز قبل م أنزل.

– تفتكر لما نكبر هنبقى زي أهالينا؟ ولا زي م احنا دلوقتي؟

– زي أهالينا طبعًا.

– بقول كدة برضو. بس إيه اللي بيحصل. إيه اللي بيخلّي الناس تتغير من الحيوية والانطلاق والصدق وخفة الدم للروتين والكليشيه والجمود والخوف.

– التجربة. لما تشوفي كل حاجة مؤمنة بيها بتخسر. لما تحبي وتتسابي. لما تتحبي م الشخص الغلط. لما تأذي غيرك بدون قصد وبعد كدة تبتدي تأذي الناس بقصد. لما تعملي كل حاجة صح ومتنجحيش. لما الحظ يتحكم في كل شيء.

– لما تلاقي إنسان كويس ممكن يكون حاجة مميزة وتعرف إنه مهاجر يومها.

ابتسمت في مرارة وقلت:

– بالظبط. ساعتها بتعرفي إن التقليدية هي الحل وإن الأمان إنك تكوني زي اللي قبلك. فتبدأي تكرهي الأمل وتمنعي عيالك من

إنهم يشوفو الجمال عشان إنتي عارفة إنه مش حقيقي. ممكن جملة صغيرة أو موقف صغير يرجعك لشبابك لحظات. لكن العجَز هو الصح دايمًا.

– بس إنت بتاخد موقف مختلف. إنت بتشق طريقك لوحدك بعيد عن كل دا.

– أنا لا بشق ولا نيلة. أنا بجري على أوضتي زي العيال الصغيرة وأعيّط. وكندا شبه أوضتي. منظمة وباردة.

ارتمت في حضني لثوان قليلة ثم تركتني.

– برضو مقلتليش. إمتى أدركت كل دا؟

منذ سنة وبضع شهور كانت حياتي تسير بشكل رائع. بدأت في البحث عن شقة لجعلها ستوديو خاص بي. معرضي الثالث الذي لاقى إعجاب مدام شيرين التي نادرًا ما يعجبها شيء. ياسمينة ستأتي إلى مصر لتقضي شهور حملها الأخير هنا. نادر سعيد في زواجه كما يجب أن تكون السعادة. يعمل مندوبًا لإحدى شركات الأدوية العالمية ويتقاضى راتبًا خرافيًا جعله يستقل تمامًا عن أبيه.

أجلس مع نادر في غرفة معيشته نلعب البلايستيشن وهو متقدم بخمسة أهداف لهدف. والهدف أحرزته بسبب استهتار من نادر. أقول:

– طب إنت مستفيد بإيه من التعذيب دا؟ قلتلك نلعب طاولة ولا حتى بنك الحظ. حاجة أكسبك فيها.

– بس إنت بتتحسن. مسيرك تكسبني.

– يا عم عمري ما هكسبك. لما تخلف وابنك يكبر هيكسبني برضو.

– والله يابني خايف أخلف عيل يطلع مجنون زيي.

– بس ع الأقل هتكون عارف تتعامل معاه إزاي.

تذكّرت شيئًا فقلت:

– فاكر حلا؟

رأيت على وجهه الرعب وهو يسأل:

– مالها؟

– لقيتها في معرضي الأخير دا. بتباركلي وبتتفرج وبتقول ملاحظات زي وشها. عاملالي فيها بتفهم وليها رؤية. كنت عايز أطردها .

ابتسم قائلًا:

– يا عم دي غلبانة. تلاقيها حست إنها وحيدة قالت ترجع أي حاجة من حاجات زمان.

– إنت هتحن ولا إيه؟

قال في غضب:

– لأ طبعًا. اللعب بتاع زمان دا راح لحاله. أنا نويت أكون زوج كويس من أول يوم والموضوع دا مفيهوش هزار.

– طب يا عم متقفش كدة أنا بهزر معاك. عارف إنك زي الفل.

– لا إنت حيوان. أنا كنت عاملّك مفاجأة بس إنت متستاهلش.

– مفاجأة إيه؟ إنت حامل؟

– لأ يا عم. قول يا رب. تسمع عن مراد غالي؟

ومن لا يسمع عن مراد غالي أهم وأشهر مصوّر في مصر. أول مصوّر مصري يقيم معارض في باريس. مصوّر رئيس الجمهورية ذاته. يحلم كل مصوّر أن يكون مثله وتحلم كل موديل أن تكون في مشروع له.

– عارفه طبعًا.

– لو عملت المعرض الجاي ممكن أجيبهولك يفتتحه.

ألقيت بذراع البلايستيشن من الصدمة وسألت:

– بجد؟ إزاي؟

قام ليأخذ الذراع من الأرض ويتأكد أنه سليم وقال:

– لو حصل فيه حاجة هتجيبلي غيره. دا بألف جنيه.

– هتجيبه إزاي؟ ها ؟ إنت تعرفه؟

– طلع قريب مديري في الشغل. مديري كان فاكرني معرفوش بس طبعًا أنا حفظت كل حاجة عنه من كلامك فقعدت أكلمه عنه. افتكرني مهووس بيه خللاني أكلمه في التليفون. عزمته على معرضك. إنت بس حدد ميعاد وقولي.

– دلوقتي. هعمل معرض دلوقتي.

اتفقت مع مدام شيرين على إعادة معرضي. واتصل نادر بمراد ويا للعجب رد عليه ووعده بالقدوم. تفتّحت لي أبواب السماء وبدا أن أحلامي في مجال التصوير ستتحقق. مثلي الأعلى سيشاهد عملي ويبدي ملاحظاته. ملاحظاته. ارتعبت من الفكرة ثم غلبتني فرحتي. أتتني فرصة حقيقية لمقابلته وربما يعرض عليّ العمل معه. كلا. لن نستبق الأحداث. يكفيني أنه سيرى عملي.

أتى اليوم. أصررت على أبي وأمي أن يأتيا ليريا حجم التقدير الذي سأحصل عليه. ارتديت أفضل ما لديّ دون مبالغة في التأنق. وقف نادر بجواري من أول اليوم وظل يتصل مؤكدًا على مراد حتى ظننته سيمل ولن يأتي. كان حسب كلام نادر خفيف الظل لطيف المعشر.

أتى أبي وأمي وظللا يشاهدان المعروضات في عدم فهم. كان معرضًا لصور عن حياة البدو في سيوة أزعم أنني قدّمت أفضل ما

لدي فيها. كنت واثقًا من أنه سينبهر. من أنني سأعلق في ذاكرته. كان هذا هو التحدي الحقيقي لي ولكل ما فعلته طوال سنيني منذ أمسكت بأول موبايل أصوّر به لعبًا.

في البداية وصل مجموعة من المصوّرين والصحفيين. المهمين هذه المرة وليسوا بؤساء المعارض. أراحني وصولهم لأنني علمت أنه آتٍ. بدأت شكوكي في ذاتي تزداد وقلبي يخفق بكل أسرع. وصل مجموعة من الشباب الصغار عرفت أنهم من تلامذة مراد. قلت لنادر وأنا يكاد يغشى عليّ.

– متشكر أوي يا نادر. من غيرك مكنتش هعرف أعمل أي حاجة.

– إنت مش عارف قيمة نفسك. أنا اللي بتشرّف لما بعمل أي حاجة ليها علاقة بيك.

نادر اللعين يعلم ما يقول ليجعلني سعيدًا وفخورًا. ربت على كتفي فأجفلت. وصل مراد. أبيض الشعر أحمر الوجه ضيّق العينين. وسيم. يرتدي بنطال جينز أزرق على قميص أبيض ومعطف رمادي. له مشية خفيفة وابتسامة واسعة. وصل فتجمّع حوله الصحفيون ومن خلفهم التلامذة.

دخل القاعة وفلاش التصوير يلاحقه في كل مكان. الضوضاء خلفه. يسأله الصحفي عن سبب حضوره اليوم فيقول أنه أتى ليشجع

الشباب الصغار لأن هذه هي مهمته ومهمة جيله. يلتقط الصور مع اللوحات والتلامذة والمعجبين.

أحاول الاقتراب منه فيبعدني عنه الزحام. أحاول الصراخ مناديًا. أقول أنني صاحب المعرض ولا حياة لمن تنادي. يخنقني الزحام. اختفى نادر من حولي. أدفع كل من هم حولي لأصل إلى مراد. بعد معاناة أقترب منه. أقول:

- أنا هشام. صاحب المعرض.

لا يعبأ بي. يواصل الابتسام للكاميرات والإجابة على أسئلة الصحفيين. بدأ الوضع يتحول إلى كابوس. أنا غير مرئي تمامًا. أصرخ وأشيح بيدي.

- أنا اللي مصوّر الصور اللي وراك دي.

ما زال يتحدث للصحفيين عن ضرورة دعم الشباب. يبتسم للكاميرات. شعرت أنني أشاهده في التليفزيون وأن بيننا حاجز زجاجي. بعد دقائق مشى تجاه الباب ثم انصرف وانصرفت معه الضجة. هكذا أتى من أجل التصوير والأضواء ثم اختفى.

جلست على الأرض مصدومًا. رأيت نظرات أبي وأمي المنبهرة. تقول أمي:

- يا رب أشوفك زيّه.

ويقول أبي:

- بس متبقاش تتكبّر علينا هاها.

هل يسخر مني؟ أم أنه حقًا سعيد بالهزل الذي رآه؟ أتى نادر وأسندني لأقف وهو يقول:

- يا ابن الوسخة. جي يتصوّر ويمشي.

فأرد وقد أدركت الحقيقة:

- عشان يبيّن إنه صديق الطلبة. خصوصًا بعد مشكلة «هدير». البنت اللي اتهمته إنه سرق شغلها. طالع يقول إنه بيدعم الشباب. بيدعم أي حمار بيصوّر وبيعمل معرض. ومعرضي جه في طريقه.

- أنا آسف إني حطيتك في الموقف دا.

- إنت مغلطتش في حاجة. أنا مليش غير الأفراح. منها وإليها نعود.

أمي الحبيبة..

فعلتِ كل ما عليكِ تجاهي. في تربيتي فعلتي كل شيء كما يقول الكتاب ربما أكثر من اللازم. ربما لم يكن الكتاب مناسبًا. وربما لا يوجد كتاب من الأساس. لا يهم. المهم أنني مهاجر ليس هربًا من إحباطاتي ولا من فشلي. بل بحثًا عما هو أفضل. تأكدي أنني سأجعلك فخورة بي أينما حللت.

أحبك للأبد

رسالة وداع آمنة أرسلتها لأمي

قبل سفري بساعات

باقي 7 ساعات و4 دقائق

صعدني كوبري 15 مايو ونزلنا تجاه منزلها في الدقي. كان موعد عودتها بمنزلها مع اقتراب موعد سفري. أصررت أن أوصلها لأقضي معها أطول وقت ممكن.

اقتربنا من منزلها ونحن نتكلم. ننتقل من موضوع إلى آخر بسلاسة ودون توقف. تحكي عن نفسها. أحلامها. قططها. تجاربها الأولى. أصحابها الحمقى. مثلها الأعلى «زها حديد». حياتها كما تتخيلها. أحلم معها وأضحك من سذاجتها. تسألني:

– إيه أحسن أغنية في العالم؟ أغنية لو سمعتها طول عمرك مش هتزهق.

أجبت دون تفكير:

– جددت حبك ليه.

– عجوز أوي.

– وإنتي؟ إيه أغنيتك؟

– As time goes by .

وبدأت تغني. صوتها ليس جميلًا. الآن يبدو لي أجمل صوت سمعته في حياتي. هادئ. حنون. متهدج. تنظر في عيني وهي تغني. ينفتح نور من دور أرضي بجوارنا فيعطيها ضوءًا يشبه ضوء المسرح.

You must remember this

A kiss is just a kiss

A sigh is just a sigh

The fundamental things apply

As time goes by

تبتعد عني في خطوات بسيطة راقصة. تمسك بذراعي وتمشي بجواري. تطير روحي في السماء. صوتها يتحشرج فتتنحنح في وسط الغناء. تمنحها العفوية جمالًا فوق جمالها.

It's still the same old story

A fight for love and glory

A case of do or die

The world will always welcome lovers

As time goes by

انتهت فوقفت أصفق لها وسط الشارع وهي تنحني لتحيي جمهورها الوحيد. سمعت صوت تصفيق من الشباك الذي أضاء لنا

النور. كم أكره هذا البلد. يبتسم لي ويمنحني أجمل يوم في حياتي حين أقرر أن أتركه. لكني لن أقع في الفخ هذه المرة. سفري قرار نهائي.

– إيه أول حاجة هتعملها لما توصل هناك؟

– مش عارف. هبوس الأسفلت؟

– غلط. هتشتري خط موبايل بإنترنت وتطمني.

– عارفة خايف من إيه؟ خايف أبقى زي المصريين في الخارج. اللي هو أحب مصر لما أسيبها. وأبقى مصري فشخ وأقعد في قهوة المصريين وأقعد أسمع نجاة ووردة وفيروز. أتفرج على عمرو أديب وأعمل معاه مداخلات. وأقعد انتخبلكو ناس هنا تطلع ميتين أبوكو. ولما أنزل مصر أجازة أبوس الأرض وأنزل آكل على عربية فول وبتاع.

– إيه دا هكرهك أوي.

– هتبطّلي تعرفيني أصلًا. هتبقي متجوّزة ومعاكي أحمد وريماس.

– هموّت نفسي قبل م أسمّي بنتي ريماس. هسمّي ليلى ومراد.

– وهشام. ولا هتخافي تحبيه أكتر من إخواته؟

ضربتني رضوي بقبضتها في كتفي.

– ليه بتبوّظ لحظة الوداع الحلوة دي. إنسان حقير. يللا روح مش عايزة أشوفك. بيتي أهو. البلكونة اللي فيها زرع.

وقفنا أمام عمارة من خمسة أدوار. أشارت إلى بلكونتها التي كانت مليئة بالنباتات.

- إنتي اللي بتسقيه؟

- أنا وماما. وساعات بنعمل كدة في نفس الوقت وبيغرق ويموت. عندنا شوية نعناع إيه. لو جيت يوم هعملّك أحلى كباية شاي بالنعناع.

قلت كذبتي الأخيرة في اليوم:

- لازم هجيلك.

- هستنّاك.

ابتسمنا لبعضنا البعض. مدّت يدها مصافحة فأخذتها من يدها وحضنتها فانتفضت وابتعدت مسرعة.

- إحنا تحت بيتي! أنا كدة بقيت شمال رسمي.

- معرفش دا تأثير اللحظات الأخيرة ولا إيه. بس أعتقد إن دا من أجمل الأيام اللي قضيتها في حياتي.

- قول إنه أجمل يوم في حياتك يا هشام عادي مش هقول عليك إنسان بائس.

- وإنتي مستنية دي عشان تقولي عليّا كدة؟ دة إجابات أسئلتك اللي من أول اليوم كلها بؤس.

- بتضايقك أسئلتي؟

- بالعكس. بتحسسني إني مهم. معندكيش أسئلة تانية؟

- إممم لأ.

ثم تتذكر شيئًا فتسألني:

- هو سؤال بغرض الفضول بس. أنا اتبسطت معاك جدًا والله بس لازم أسأل. نادر صاحبك اللي كنت بتحكيلي عنه دايمًا وبتحكي أد إيه إنتو قريبين. فين من يوم زي دا؟

- عارفة لوحة الإعلانات اللي فوق كوبري أكتوبر من عند عبد المنعم رياض. اللي فيها إعلان بيقول «السعادة بين إيديك»؟

- آه فاكرة حاجة زي كدة.

- نادر شنق نفسه من فوقيه.

شهقت ووضعت يدها على فمها. دمعت عيناها واحتضنتني. قلت:

- إحنا تحت بيتك.

- شمال شمال مش مهم دلوقتي.

وحضنتني بقوة.

عزيزي هشام..

رجعت أكلم حلا. بقيت أنام معاها بشكل منتظم وبعرف أكدب عليكو كلكو. مفيش فايدة فيّا. قلت لك إني هعمل حاجة الناس هتفتكرني بيها. مش لازم الحاجة دي تكون شكل تقليدي للفن. في ناس بترسم وناس بتغني وناس بتصوّر وناس بترقص. ممكن نعتبر دي رقصة. منا جسمي بيرقص قدامك ع الحبل أهو. وشفت الصياعة في اختيار الإعلان؟ «السعادة بين إيديك» عشان يعرفو إنها لا بين إيديّا ولا خرا.

حاولت كتير أكون طبيعي وفشلت. أنا إنسان وحش وصديق وحش وزوج وحش وابن أوحش. أنا آسف متزعلش مني. الإعلان كان بينادي. الفكرة في دماغي من أول مرة مشينا سوا وإحنا رايحين شقة الزمالك. إنت عملت كل حاجة في إيديك. متحسش إنت ولا داليا بالذنب. لكن أبويا وأمي خللي الذنب يعذبهم يموّتهم. تخيّل تتعب وتربّي ابن وفي الآخر ينتحر بسببك. عقاب فشيخ ها؟ متزعلش مني. بحبك يا هشام. وبحبكو كلكو. إنت أقرب حد ليّا في العالم. افتكرني بالخير.

رسالة انتحار وُجدت

في جيب نادر عند وفاته

باقي 4 ساعات و 22 دقيقة

عدت إلى المنزل. تناولت العشاء معهم. كان تجمعًا عائليًا هادئًا دون مشاكل. كلّمنا ياسمينة بالصوت والصورة لكن وجود سليم جعل المكالمة مفتعلة وسخيفة. كلّمتني أمي عن طرق الاعتناء بنفسي وحيدًا وعن البرد والملابس. حدثني أبي عن التفاصيل. جواز السفر والتذكرة والجمارك. آدم كان يضحك ويسخر من كل شيء فعرفت أنه يتألم لسفري ويعلم ما أخفيه. قال آدم:

– مش يللا بقى ولا إيه؟

فردت أمي في جزع:

– لسة بدري! انزلوا قبلها ب 3 ساعات كويس.

فيرد آدم:

– دا هو المفروض يكون في المطار قبل الطيارة ب3 ساعات. دي كندا مش هزار. يللا بس.

جررت حقائبي بمساعدة آدم تجاه الباب. حضنتني أمي حضنًا دافئًا أخيرًا. بحثت عن أبي وناديته لأخبره أنني راحل. عاد من الداخل ومعه شال صوفي. أعطاه لي وقال:

– كندا تلج. دا شال أمك غازلاه بإيديها من أيام ما كنت في السلوم. خده أنا خلاص صلّحت الشباك ومبقاش يجيلي هوا.

لهذا كان أبي حريصًا على إصلاح الشباك طوال اليوم. ليعطيني الشال فأتدفّأ وأتذكرهم. دمعت عيني وحضنته صدقًا لأول مرة منذ نما وعيي.

أنزلنا الحقائب ووضعناها في السيارة. وقف لنا أبي وأمي في البلكونة حتى تحركنا. ظللت أشير لهم ويشيرون لي حتى اختفيا عن نظري. فكّرت في أنني ربما ظلمتهما. وأنهما أحبّاني بطريقتهما. لكن ما يلامان عليه أنهما لم يتركاني أحب بطريقتي.

في لحظات كهذه أتذكر نادر. كنا سنسهر معًا. لم يكن سيترك أدهم يوصلني. وربما كان يأتي لي بأكلة كفته من صبحي كابر مع بيرة وحشيش. كان سيصر أن «نخرب» معًا في ليلتي الأخيرة. هل كان سيتركني أسافر؟ هل كنت سأسافر لو كان على قيد الحياة؟

نظرت إلى الطريق فوجدت آدم لا يتجه إلى المطار بل بالعكس. يمشي داخل حدائق القبة حتى يصل إلى خرابة قديمة ويتوقف هناك. سألته:

– إنت دافن كنز هنا ولا إيه؟

– لا دافن كنز في التابلوه. افتحه كدة.

أفتح التابلوه فأجد خيرات الله. زجاجة ويسكي black label وعدة سجائر ملفوفة وكأسين زجاجيين.

– أنا عارف إنك قلقان وخايف. قلت أريّحك م الstress. وأهي تبقى آخر ذكرى لينا مع بعض.

– آخر إيه يا عم دا هما كام شهر وراجع.

ابتسم آدم في مرارة وقال:

– أنا مش غبي يا هشام. اللي بيروح مبيرجعش. وعارف إن الحاجات دي هتوحشك. وأنا كان نفسي أخرب معاك من زمان بصراحة. أكيد بتبقى جامد فشخ.

– ماشي يا عم. ولّع وصُب.

أشعلنا السجائر وصببنا الويسكي في الكئوس. يقول آدم بعد الكأس الأولى:

– الحاجات دي هناك رايقة فشخ. مش الزبالة اللي هنا. بس إنت هناك متعرفش تشتري سيجارة weed. العصابات تاكلك وإنت غلبان. هيسرقوك ومش بعيد يغتصبوك.

– وإنت يعني مش هيغتصبوك؟

– لا أنا رايق. هعرف أتعامل. وبعدين الخربان مش خمرة وحشيش. الخربان دا attitude . وإنت لوحدك هناك مش هتتبسط. الناس هناك دمهم واقف كدة مش رايقين زيّنا.

بعد الكأس الثالثة والسيجارة الثانية قلت:

– الكاسات دي مش غريبة عليّا. إنت جايبهم منين؟

– من النيش عندنا. دا جهاز أمك. 20 سنة بشوفهم في النيش وعمري ما شربت فيهم. قلت مفيش مناسبة أحسن من دي عشان نجربهم.

– وأمك مش هتاخد بالها؟

– يا عم لأ. زمانها بتعيّط عشان إنت مسافر. إحنا كلنا عارفين يا إتش. أو حاسّين يعني.

– طب وليه محدش كلمني في الموضوع؟

– عشان إنت مكانك مش هنا. طول عمرك غريب. دماغك وشغلك وصحابك والمزيكا اللي بتلعبها والأفلام اللي بتشوفها. تحس إنك مش من هنا. مش منسجم. تحس إنك قاعد معانا ضيف. مبتعرفش تتعامل كدة. متعرفش اللي قدامك دا بيحوّر ولا لأ. مبتعرفش تكدب. بتفترض إن الناس طيبين وكويسين.

– بس دا الصح.

– مهو مين بيعمل الصح. أنا بحس إنك طالعلي من فيلم ولا من كتاب. عشان كدة بحبك فشخ وعايز أشوفك مبسوط. عشان كدة أنا مع خطوة السفر جدًا.

بعد الكأس الرابعة والسيجارة الثالثة قلت:

– أنا بحبك. إنت طيب. بتلف وتدور وتحوّر وتغلط بس إنت من جواك نضيف. وهتبقى حاجة كبيرة ومحترمة وهتتجوّز واحدة حلوة شكلاً وأخلاق وكل حاجة. وتبقى خسارة في جتتك.

ضحك كثيرًا. ثم أخرج هاتفه المحمول وقلّب فيه قليلًا ثم أعطاه لي وهو يقول:

– قلّب شمال. دي نيرة. خسارة في جتّتي فعلًا.

أمام على الموبايل ملاك أبيض الوجه ذو شعر أحمر وابتسامة ساحرة وملابس محتشمة تغطي جسدًا مثاليًا. سحب مني الموبايل وقال:

– مش هنبحلق. خلاص حلو كدة. بتسلم عليك وبتقولك تروح وتيجي بالسلامة.

– الله يسلمها. قمر وشكلها طيبة ومحترمة. خللي بالك منها.

– طبعًا.

بينما أصب الكأس السادسة وجدت الزجاجة انتهت. قال لي آدم وهو مائل برأسه على الكرسي في هيام:

– الحب دا حلو فشخ يا هشام. فكرة إنك تحب تشوفها بس وتقعدو متعملوش حاجة. أو تقعد تكلمها في التليفون بتسمع يومها وحواديتها عن صحابها والمذاكرة وخناقاتها مع أمها. أو تسمع

صوت نفسها وهي نايمة. دا غير الحاجات التانية بقى. مسكة الإيد بس بتبقى أحسن من أي واحد هتعمله مع واحدة تانية.

بدأ رأسي يثقل. شعرت ببعض الخوف أن تفوتني الطائرة فنظرت في الساعة فوجدت أن باقي 3 ساعات ونصف. ثم بدأ الخوف يسيطر عليّ. خوف من أن تفوتني الطائرة. ثم الخوف من لحاقي بالطائرة. من السفر. من الوحدة. من النوم على الأرصفة الباردة. من أن تغتصبني العصابات. يُكمل آدم:

– طب أقولك على حاجة بما إنك مسافر. أنا كنت بشيل بقالي سنتين. أنا في سنة تانية مش في رابعة. بقيت أذاكر وأنجح بسببها. الترم اللي فات جبت جيد والترم دا شادد حيلي جامد. كل دا عشان أخطبها. محدش يعرف الحوار دا بس قبلها أنا كنت عايش حياة حزينة. كل يوم شبه اللي قبله. كنت بنزل ع القهوة أقعد بالساعات معملش أي حاجة. مكنتش قادر أتكلم مع حد ولا أبص في وش حد. مكنتش عايش. جت هي كل حاجة اتشقلبت.

قلت له في فزع:

– كدة هنتأخر. يللا نتحرك.

– يللا.

– إنت سكرت. مينفعش تسوق. هسوق أنا.

- يا عم أنا مشربتش حاجة إنت اللي كنت بتأربع.

- مش هروح المطار مع واحد سكران أنا. مش طالبة نعمل حادثة. هسوق أنا و إلا هاخد أوبر.

- لا يا عم على إيه. تعالى سوق.

تبادلنا المقاعد. قدت بسرعة لكن بهدوء ورزانة. أو هكذا أظن فأنا مسطول بدوري. يقول آدم:

- هتوحشك سواقة مصر ها؟ الغُرز والجري والعشوائية.

ذكّرني كلامه بهذا الأمر. وبأنني لم أشبع من كل ما سأفتقد في مصر. ولن أشبع أبدًا. بدأت أُسرع بالسيارة وأتخطى السيارات أمامي. نظرت في عداد السرعة فوجدته 120 فهدّأت قليلًا. أبذل مجهودًا كبيرًا للتركيز في الطريق. هاتفي على التابلوه. تأتيني رسالة على الواتساب. ربما من نادر. كلا. نادر ميت ولا توجد شبكة في الآخرة. أمسك بموبايلي فيأخذه مني آدم قائلًا:

- ركز في السواقة. هشوفلك أنا مين باعتلك. واحدة اسمها رضوى. يا شقي.

أركّز في الطريق بشكل أكبر وأهدئ السرعة. يقرأ آدم رسالة رضوى بصوت عال:

– أنا اترددت كتير قبل م أبعت الكلام دا. وفكّرت هل اللي حاسة بيه دا بجد ولا عشان إنت ظهرت فجأة وماشي. ممكن سحر القصة نفسها. ممكن سحر البدايات زي ما بيقولوا.

– خلاص يا آدم لما نوصل هقرا أنا.

– يا عم استنى الموضوع شكله كبير.

ويقرأ بلسان ثقيل:

– أنا بحبك. حب من بتاع الأفلام والروايات. من اللي بيعمل نار في الضلوع. من اللي بيخلّيك تعيّط لحد ما تنام. من اللي بيغيّر حياتك. من اللي بيصحّيك من أحلى نومة مستني مسدج. من اللي بيخلّيك تغنّي فجأة بصوت عالي وإنت متخيّل نفسك بتغني لحبيبك. بحبك حب من دا. بحبك ومعرفش دا هيترتب عليه إيه أو هيغيّر إيه. بحبك وأنا عارفة إن دا أكبر غلط. بس مينفعش تسافر من غير ما تعرف حاجة زي كدة. خللي بالك من نفسك وطمّني لما توصل.

استمعت إلى الرسالة وقلبي يخفق سعادة وخوفًا وإحراجًا من آدم. انتهت مخاوفي السابقة وتولدت مخاوف جديدة. نظرت إلى عدّاد السرعة فوجدته وصل إلى 140. نظرت إلى أعلى فوجدت لوحة إعلانية بها فتاة صغيرة تجري وخلفها حديقة وفيللا ومكتوب «السعادة بين إيديك» ثم انفتحت في وجهي وسادات الأمان الair bags .

باقي سنة وساعتين

استيقظت لأجد نفسي في غرفة مستشفى. رجلي وذراعي في الجبس ومعلّقة لي المحاليل والأدوية. آدم في السرير المجاور لي وجواره الملاك ذو الشعر الكستنائي. بين السريرين يجلس أبي وأمي. أغلق عيني من جديد ثم أفتحها فأجد رضوى بجواري ومعها باقة ورد أطول منها. أسمع صوت رضوى يقول:

- بعت للجامعة بتاعتك وتفهّموا الموقف. المنحة اتأجلت للسنة الجاية. إنت بس قوم بالسلامة وهتلاقي كل حاجة مستنياك .

أرى أمي تقدم الشيكولاتة لرضوى وفي عينيها رضا لم أعهده من قبل. أبي ينظر إليّ في لهفة وقلق . أفتح عيني وانظر إلى رضوى وابتسم . فقد قررت ما سأفعله.